٨ سُورَةُ الأَنفَالِ ٧٥

مدنية وآياتها خمس وسبعون

بين يدي السورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيرًا من التشريعات الحربية، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب «غزوة بدر» التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة «سورة بدر» لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود.

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، ورد البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم، وضعف في عددهم، وعلى عدم تهيئهم للقتال، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده، وقَوِيَتْ شَوْكتُه، وامتد سلطانه، فلابد من له من يوم يخر فيه صريعًا أمام جلال الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر نصرًا للمؤمنين، وهزيمة المشركين.

*وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أُمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلو به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

***أما النداء الأول:** فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

* **وأما النداء الثاني:** فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع لا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق.

* **وأما النداء الثالث:** فقد بين فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ...﴾ الآية.

* **وأما النداء الرابع:** فقد نبههم فيه على أن إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة أيضًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

* **وأما النداء الخامس:** فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

* **وأما النداء السادس:** وهو النداء الأخير فقد وضع لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيرًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين، وأنه مهما تناءت ديارهم، واختلفت أجناسهم، فهم أمة واحدة، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين، كما أن ملة الكفر أيضًا واحدة، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ ﴾ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

*هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف، وما أرشدت إليه من دروس وعبر، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ

ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ
وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم
بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ
ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا
لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ
تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً
حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ
جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا
يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾

اللغة: ﴿ٱلۡأَنفَالِ﴾ الغنائم جمع نَفَل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان، وتسمى صلاة التطوع نفلاً، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ ... وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَالْعَجَلْ [1]

﴿وَجِلَتۡ﴾ الوجل: الخوف والفزع ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ الشوكة: السلاح وأصلها من الشَّوك قال أبو عبيدة: ومجاز الشوكة الحد يقال: ما أشدَّ شوكة بني فلان أي حدّهم[2] ﴿تَسۡتَغِيثُونَ﴾ الاستغاثة: طلب النصرة والعون ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال «الطبري»: العرب تقول: أردفته وردِفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر:

إِذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا[3]

(١) (ش): خَيْرُ نَفَلْ: أَيْ خَيْرُ غَنِيمَةٍ. (وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَالْعَجَلْ): أي أن التأنّي والعَجَلة من قدر الله ﷻ.
(٢) «زاد المسير» ٣/ ٣٢٤.
(٣) «الطبري» ١٣/ ٤١٥. (ش): (الجَوْزاء): أحد أبراج السَّماء. (الثُّرَيَّا): مجموعة من النجوم في صورة الثَّوْر، وهي سبعة كواكب. معنى البيت أنه إذا طلعت الجوزاء إثر الثريا عند الفجر ثم لم يردفها نجم آخر لغلبة نور الشمس على النجوم.

﴿بَنَانٍ﴾ البنان: جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنترة:

وَكَانَ فَتَى الْهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارَهَا وَيَضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كُلَّ بَنَانِ[1]

﴿زَحْفًا﴾ الزحف: الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿مُتَحَيِّزًا﴾ منضماً يقال: تحيّز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿بَآءَ﴾ رجع ﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿تَسْتَفْتِحُوا﴾ استفتح: أي طلب الفتح والنصرة على عدوه.

سَبَبُ النّزول: أ - عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ أَسَرَ أَسِيرًا فَلَهُ كَذَا وَكَذَا**»، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردءًا ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية فقسَّم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية»[2].

ب - روي «أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه تراب من تلك القبضة وولوا مدبرين» فنزلت ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ...﴾ الآية[3].

التفسير: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي؟ وكيف تقسم؟ ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي قل لهم: الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء[4] فكان في ذلك تقوى الله، طاعة رسوله، وإصلاح ذات البين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط

---

(١) «القرطبي» ٧/ ٣٧٩. (ش): الهَيْجاءُ: الحَرْبُ. الذِمار: ما يجب حمايتُه، والدفاعُ عنه، كالأهل، والعِرْض.

(٢) «روح المعاني» ٩/ ١٦٢. (ش): رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤٤٥. (ش): عن أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَخَذَ يومَ بَدْرٍ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ فَرَمَى بِهَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ، فَانْهَزَمُوا فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[الأنفال: ١٧]. (صحيح، رواه الطبراني).

وعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخَذَ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَنَا بِهِ، فَرَمَانَا بِهَا، وَقَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ» ، فَانْهَزَمْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] (حسن، رواه الطبراني).

(٤) «التسهيل» ٢/ ٦٠. (ش): حسن، رواه أحمد.

حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره، استعظاماً لشأنه، وتهيباً منه جلَّ وعلا ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله[1] ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2] أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في «البحر»: أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن[3] ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الكاف تقتضي مشبّهاً قال ابن عطية: شهبت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع[4] فيها، والمعنى: حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال «الطبري»: المعنى: كما أخرجك ربك بالحق على كرهٍ من فريقٍ من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تَبيَّن، والحقُّ الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعدما تبيّنوه هو القتال[5] ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان، وكان جدالهم هو قولهم: ما كان خروجنا إلاّ للعير ولو عرفنا لَاسْتَعْدَدْنا للقتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ قال «البيضاوي»: أي يكرهون القتال

---

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) قال ابن الخطيب: ليقرأ هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن، وليعرضها على نفسه، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل، وما وهبه من خير، وإن وجدها في وادٍ وهو في واد، فليلجأ إلى الرحيم الودود، وليجأر إلى اللطيف الحميد، أن يصفي قلبه ويزيده إيمانًا وتوكلًا، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فنعم القريب ونعم المجيب، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية.

(٣) «البحر» ٤/ ٤٥٧.

(٤) «الطبري» ٤/ ٤٦١.

(٥) «الطبري» ١٣/ ٢٩٣.

كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم[١] ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين أنها لكم غنيمة إما العير أو النفير ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محمّلة بتجارة قريش قال المفسرون: «روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برئاسة أبي سفيان، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريشاً، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل: يا أهل مكة النجاء النجاءَ، عيركُم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم: إن العير قد مضت على ساحل «البحر»، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يا رسول الله: عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال: امض بنا لما شئت فإنا متبعوك، وقام سعد بن معاذ فقال: والذي بعثك بالحق لو خضت بنا «البحر» لخضناه معك فسرْ بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»[٢] ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم

---

(١) «البيضاوي» ص ٢٠٩.

(٢) «البيضاوي» ص ٢٠٩ بتصرف.

(ش): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: «إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا): لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَ الْخَيْلَ الْبَحْرَ لأَخَضْنَاهَا. (بَرْكَ الْغِمَادِ): قِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ مِنْ وَرَاءِ مَكَّةَ بِخَمْسِ لَيَالٍ بِنَاحِيَةِ السَّاحِلِ، وَقِيلَ: هُوَ مَوْضِعٌ بِأَقَاصِي هَجَرَ. وَقِيلَ: هُوَ فِي أَقْصَى الْيَمَنِ.

وفي رواية: قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: «وَاللهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ». قَالَ: «أَجَلْ». قَالَ: «فَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَكَ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ».

فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَّطَهُ. ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» (رَوَاهُ ابْنُ إِسْحَاقَ بإسناد صحيح.).

انظر ما ثبت من تفاصيل غزوة بدر في كتاب «السِّيرةُ النَّبويَّةُ الصَّحيحَةُ مُحاوَلَةٌ لِتَطبيقِ قَواعِدِ المُحَدِّثينَ فِي نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبويَّةِ» للدكتورأكرم ضياء العمري.

يوم بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في «البحر»: والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة، وسلامة الأحوال، وسفساف الأمور، والله تعالى يريد معالي الأمور، وإعلاء الحق، والفوز في الدارين، وشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكهم عياناً خذلانهم، فنصركم وهزمهم، وأذلهم وأعزكم[1] ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحقَّ ويبطل الباطل فَعَلَ ما فَعَلَ والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين، روي أن سول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله كفاكَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً[2]، قال المفسرون: ورد أن جبريل نزل بخمسائة وقاتل بها في يسار الجيش، ولم يثبت أن الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل[3] ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فَثِقُوا بنصره ولا تَتَّكِلُوا على قُوَّتِكم وعُدَّتكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب لا يُغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عند سبحانه وتعالى، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميعَ النومُ في وقت الخوف قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْه: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح»[4]، قال ابن كثير: وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله[5] ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديد لنعمة أخرى، وذلك أنهم عدموا

(١) «البحر» ٤/ ٤٦٤.
(٢) (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ والترمذي. (مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ)، أي: دعاؤُك إياه وتضرُّعُك إليه.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ١١٨.
(٤) رواه أبو يعلى. (ش): رواه أحمد بإسناد صحيح.
(٥) «المختصر» ٢/ ٩٠.

الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي من الأحداث والجنايات ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش، قال «البيضاوي»: روي أنهم نزلوا في كثيبٍ أعفر، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[1] ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي يقوّيها بالثقة بنصر الله ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي يُثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال «الطبري»: ثبّت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملةٍ مَيْثَاء فلبّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها[2] ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي يوحي إلى الملائكة بأني معكم بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فَضَرْبَ الرقاب﴾ [محمد: ٤] وقيل: المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في «التسهيل»: وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطَّل عن القتال فأمكن أسره وقتله[3] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى، أو بالفر للكرّ بأن يخيّل إلى عدوه أنه منهزم ليغرّه مكيدة وهو من باب «الحرب خدعة» ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ

---

(١) البيضاوي ص ٢١٠. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» وابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ. والكثيب: تلّ أو مرتفَع من الرِّمال كوَّمته الرياحُ. (أَعْفَرُ): لوْنُه كالعَفْر: وجه الأرض والتراب.

(٢) «الطبري» ١٣/ ٤٢١. (ش): (الرملة المَيْثَاء): اللَيِّنة السهلة. قد تسوخ فيها الرجل قليلًا. (لبَّد المطرُ الأرضَ): ألصق بعض ترابها ببعض فصارت قوية لا تسوخ فيها الأرْجُل، أي لا تغوص فيها.

(٣) «التسهيل» ٢/ ٦٢.

﴿فِئَةٍ﴾ أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فقد رجع بسخطٍ عظيم ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمآل ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير، قال ابن عباس: أَخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين[1] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوالهم عليهم بنيَّاتهم وأحوالهم ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي ذلك[2] الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هذا خطاب لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر، وهذا على سبيل التهكم بهم قال «الطبري» في رواية الزهري: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحِنْه اليوم - أي أهلكه - فأنزل الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فكان أبو جهل هو الْمُسْتَفْتِحَ[3]، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تكفّوا يا معشر قريش عن حرْب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نَعُدْ لنَصْرِه عليكم ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي دُومُوا على طاعة الله وطاعة رسوله يَدُمْ لكم العز الذي

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٤٤٣.

(٢) ذلكم مبتدأ حذف خبره تقديره: ذلكم الذي حدث حق.

(٣) (ش): رواه أحمد بلفظ: «اللَّهُمَّ أَقْطَعَنَا لِلرَّحِمِ، وَآتَانَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ» فَكَانَ الْمُسْتَفْتِحَ (رَوَاهُ أَحْمَدُ وصححه الأرنؤوط). ورواه الحاكم بلفظ: وفيه: فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِفْتَاحَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١٩] وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. (أَقْطَعَنَا لِلرَّحِمِ): اسْمُ تَفْضِيلٍ لِلْقَطْعِ، أَيْ أَكْثَرُنَا قَطْعًا الرَّحِمَ. (فَأَحْنِهِ): الْحَيْنُ: الْهَلَاكُ، وَقَدْ حَانَ الرَّجُلُ: هَلَكَ. يُقَالُ: أَحَانَهُ اللهُ، أَيْ: أَهْلَكَهُ وَلَمْ يُوَفِّقْهُ لِلرَّشَادِ. أَيْ اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ أَكْثَرَنَا قَطْعًا الرَّحِمَ وَإِتْيَانًا بِمَا لَا يُعْرَفُ فَأَهْلِكْهُ الْيَوْمَ.

حصل ببدر ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذفت منه إحدى التاءَيْن ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي تسمعون القرآن والمواعظ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، فسماعُهم كَلَا سماع[1] لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي شرَّ الخلق وشرَّ البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ أي الصمُّ الذين لا يسمعون الحق، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌّ عما جاء به محمد، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخسَّ من كل خسيس ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماعَ تَفَهُّمٍ وَتَدَبُّر ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ولو فُرض أن الله أسمعهم - وقد علم أن لا خير فيهم - لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين.

البَلاَغَة: ١ - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف.

٢ - ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة.

٣ - ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ التشبيه هنا تمثيلي.

٤ - ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٥ - ﴿ذَاتِ الشوكة﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدّة بينهما.

٦ - ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك.

٧ - ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن.

٨ - ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمُقَدَّم والتشويق إلى المُؤَخَّر.

٩ - ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

١٠ - ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شبّه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق، ويأكل والبهائم تأكل، بقي أنه يضر والبهائم لا تضرُّ فكيف لا يكون شراً منها؟

---

(١) (ش): أي سماعُهم كعَدمِ السَّماعِ.

تنبيه: ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدَّهم بثلاثة آلاف، ولا تعارض بن الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مُرْدِفِينَ﴾ ومعناه متتابعين فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الكافرين، وشبّههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة.

اللغَة: ﴿مُكَآءً﴾ المكاء: الصفير قال أبو عبيدة: والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والخوار والدُّعاء والنباح[1] ﴿وَتَصۡدِيَةً﴾ التصدية: التصفيق يقال: صدى

(١) «البحر» ٤/ ٤٧٤.

تصدية إذا صفق بيديه وأصله من الصَّدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ الركم: الجمع قال الليث: هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً مركوما كركام الرمل والسحاب[1] ﴿سَلَفَ﴾ مضى ﴿سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادة الله وسنته في إهلاك المكذبين من الأمم السالفة ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم.

سَبَبُ النّزول: أخرج ابن جرير عن الزهري «أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم» سعد بن معاذ «فقالوا: أرسل لنا» أبا لبابة «فبعثه رسول الله ﷺ إليهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فقال: لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ فنزلت الآية» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ....﴾ الآية ثم نزلت توبته[2].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس، وبه تَحْيَوْن الحياة الأبدية قال قتادة: هو القرآن فيه الحياة، والثقة، والنجاة، والعصمة في الدنيا والآخرة[3] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء، يُصَرِّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغيّر مقاصده، ويلهمه رشده، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[4]، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان[5] قال أبو حيان: وفي ذلك حضٌّ على المراقبة، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلَّ وعلا[6] ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع، وتصل إلى الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك

---

(١) نفس المرجع ٤/ ٤٧٤.

(٢) «روح المعاني» للألوسي ٩/ ١٩٥. (ش): نزول الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان». لكن روى الإمام أحمد بإسناد حسن أن بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم، وقد استشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر من الصحابة - وكان حليفاً لهم - فأشار إلى أن ذلك يعني ذبحهم.

(٣) «الطبري» ١٣/ ٤٦٨.

(٤) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

(٥) «روح المعاني» ٩/ ١٩١.

(٦) «البحر» ٤/ ٤٨١.

بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ** »[١]، قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألاّ يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب، فيصيب الظالم وغير الظالم[٢] ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقتَ أنْ كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب، والخطف: الأخذ بسرعة ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره المؤزر حتى هزمتموهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطْلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكاليف الشرعية كقوله ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية قال ابن عباس: خيانة الله سبحانه بترك فرائضه، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته، والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[٣] ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر: وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجاباً عن خدمة المولى[٤] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم، تُفَرِّقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨] وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أي يسترها

(١) رواه البخاري. (ش): ليس في البخاري، وإنما رواه الترمذي، وصححه الألباني.
(٢) حاشية الصاوي ٢/ ١٢٢.
(٣) «روح المعاني» ٩/ ١٥٩.
(٤) التفسير الكبير ١٥/ ١٥٢.

عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى: اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أي يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال «الطبري» في روايته عن ابن عباس: إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال شيخ من العرب، سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا: أجل فادخل، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك، فصرخ عدو الله وقال: والله ما هذا لكم برأي، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فقال قائل: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه القلوب بحديثه؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم، قالوا صدق فانظروا رأيًا غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا جلداً، ونعطي كل واحد سيفًا صارمًا، ثم يضربونه فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلامًا شابًا جلداً، ونعطي كل واحد سيفًا صارمًا، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، ويتفرق دمه في القبائل كلها، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه، فصرخ عدو الله إبليس: هذا والله الرأي لا أرى غيره، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن له بالهجرة، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ.. .﴾[1] الآية ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً: قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها وليس كلام الله تعالى قال

(١) «الطبري» ١٣/ ٤٩٥. (ش): ضعيف، أخرجه «الطبري» في «جامع البيان» وأبو نعيم في «دلائل النبوة» وابن أبي حاتم في «تفسيره» والبيهقي في «دلائل النبوة».

«أبو السعود»: وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد، كيف لا، ولو استطاعوا لما تأخروا فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين؟ وقُرِّعوا[١] على العجز، ثم قُورِعوا[٢] بالسيف فلم يعارضوه، مع أنفتهم، وفرط استنكافهم[٣] أن يغلبوا لا سيما في باب البيان؟[٤] ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بعذاب مؤلم أهلكنا به، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير: وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[٥] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها قال ابن عباس: لم تعذب أمة قط ونبيها فيها[٦]، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال[٧] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي وما ان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله، وهو إشارة إلى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله ﷺ، والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال؟ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً[٨] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء.. والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة، ولكن

---

(١) (ش): قرَّع: عَنَّف.
(٢) (ش): قارعَ فلانٌ فلانًا: ضارَبَهُ وصارَعَهُ. قارع الحجّة بالحُجّة: ردّ على الدليل بدليل عكسيّ.
(٣) (ش): اسْتَنْكفَ: امْتنَع أَنَفَةً وحميَّة واستكبارًا.
(٤) «أبو السعود» ٢/ ٢٣٧.
(٥) «المختصر» ٢/ ١٠١.
(٦) «البحر» ٤/ ٤٨٩.
(٧) «الرازي» ١٥/ ١٥٨.
(٨) (ش): استأهل الشيءَ: استحقّه، كان أهلًا له، حقيقًا به.

الله رفعة عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً، وكانوا يفعلونهما إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةٌ يصفرون ويصفقون[1] ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأَسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام، ولحرب محمد عليه السلام، قال «الطبري»: لما أصيب كفار قريش يوم بدر، ورجع فلُّهم[2] إلى مكة قالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وَتَرَكم[3] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا فنزلت الآية[4] ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم، فأَعْظِمْ بها حسرةً وندامةً لمن عاش منهم ومَن هلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٢٤.

(٢) (ش): قومٌ فَلٌّ: مُنْهزِمونَ، والجمع فُلولٌ وأفْلالٌ. فلول الجيش: الجماعات المتفرِّقة من الجنود المنهزمين.

(٣) (ش): وَتَر الشّخصَ: أدركَه بمكروه. قَتَل حَميمَه، أي قريبه الذي يهتمّ لأمره، أو صديقه الذي يُكِنُّ لك حبًّا شديدًا.

(٤) نفس المرجع ١٣/ ٥٣٢. (ش): ضعيف. أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، و«الطبري» في «جامع البيان».

سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي، فكذلك نفعل بهم، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، قال ابن عباس: الفتنة: الشرك، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه[1] ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام قال الألوسي: واضمحلاها إما بهلاك أهلها جميعًا، أو برجوعهم عنها خشية القتل[2]، لقوله عليه السلام « « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ** »[3]، ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغلب من نصره الله.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية، شَبَّه تَمَكُّنه تعالى من قلوب العباد وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، وهي استعارة لطيفة.

٢ - ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تآمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام.

٣ - ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق «المشاكلة» بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر، والمشاكلة أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم[4].

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٣٨.

(٢) «روح المعاني» ٩/ ٢٠٧.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

(٤) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ من سورة البقرة.

(ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ.

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ.

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها. =

٤ - ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصدية «التصفير والتصفيق» موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله، وهو على حَدِّ قولِ القائل: « **تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ** »[1].

٥ - ﴿ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ «الخبيث» و «الطيب» طباق وهو من المحسنات البديعية.

تنبيه: روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟ ثم قال: لأعلمنك أعظم صورة في القرآن قبل أن أخرج، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[2].

لطيفة: حكي عن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْه أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملَّكُوا عليهم امرأة! فقال الرجل: أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم

= فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا.

فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾. وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

(١) (ش): أَيِ: الْقَائِمُ مَقَامَ التَّحِيَّةِ هُوَ الضَّرْبُ الْوَجِيعُ.

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٩٥. (ش): رواه البخاري

إلى الحق ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، فسكت معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْه[1].

تنبيه: البلاذري لا يُعْتمد عليه فيما ينقله عن الصحابة رضي الله عنهم من أحداث الفتنة؛ فقد ورد في ترجمته ما يدل على أن في عدالته نظرًا.

قال الله تعالى:

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

---

(١) (ش): هذه القصة لا تثبت، رواها الواحدي في «التفسير الوسيط»، البلاذري في «أنساب الأشراف» بسند ضعيف.

مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ
إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

المناسبة: لما أمر تعالى بقتال المشركين، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم - وهي أموال المشركين - على طريق القهر والظفر، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها - ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة «غزوة بدر».

اللغة: ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ عدوة الوادي: جانبه وشفيره، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ القصوى: تأنيث الأقصى أي الأبعد، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نَكَصَ﴾ النكوص: الإحجام عن الشيء ﴿كَدَأْبِ﴾ الدأب: العادة، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال: فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عادته ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ قال الليث: يقال ثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به[1] ﴿فَشَرِّدْ﴾ التشريد: التفريق والتبديد يقال: شردت القوم إذا قاتلتهم وطردتهم عنها حتى فارقوها.

التفسير: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتوه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ قال الحسن: هذا مفتاح كلام، الدنيا والآخرة لله[2] أي أن ذِكْر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] قال المفسرون: تقسم الغنيمة خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم، والفقراء من ذوي الحاجة، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء، ومنه

(١) «الرازي» ١٥/ ١٨٩.
(٢) «القرطبي» ٨/ ١٠.

نَصْرُكم مع قلَّتكم وكثْرتهم ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب إلى المدينة ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل «البحر» ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[1] قال «الرازي»: المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلتكم وكثرتهم[2]، ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، فكان أمراً متحققاً واقعاً لا محالة قال «أبو السعود»: والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح، ليس إلا صنعاً من الله عَزَّ وَجَلَّ خارقاً للعادات، فيزدادوا إيماناً وشكراً، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس[3] ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي فعل ذلك تعالى ليَكْفر مَن كَفَر عن وضوح وبيان[4] ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعداءك قلة، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغيّر أحوالها من الشجاعة والجبن، والصبر والجزع ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٦٦.
(٢) تفسير «الرازي» ١٥/ ١٦٧.
(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٤٠.
(٤) ذهب «الطبري» إلى أن المعنى ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وليعش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها وما ذهبنا إليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤيده: ﴿**لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين**﴾.

التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم، وقلَّلكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال أبو مسعود: لقد قُلِّلُوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل: أتراهم يكونون مائة[1]؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبُهتوا وهابوا، وفُلَّت شوكتهم[2]، ورأوا ما لم يكن في الحسبان، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي فَعَلَ ذلك فجَرَّأ المؤمنين على الكافرين، والكافرين على المؤمنين، لتقع الحرب ويلتحم القتال، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه، وتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرّفها كيف يريد، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم، ويدخلكم الوهن والخور ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً، وطلباً للفخر والثناء، والآية إشارة إلى قول أبي جهل: والله لا نرجع حتى نَرد بدراً، فنشرب فيها الخمور وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان - المغنيات - وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً[3] ، قال «الطبري»: فَسُقُوا مكانَ الخمر كؤوسَ المنايا[4]، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي واذكر وقت أن حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ

---

(١) «الطبري» ١٣/ ٥٧٣.

(٢) (ش): فَلَّ السَّيفُ ونحوُه: تثلّم حدُّه؛ صار ضعيف القطع. فَلَّ السَّيفَ: كسَره في حَدِّه.

(٣) ذكر «الطبري» في روايته عن ابن عباس أن أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل إلى قريش يقول: ارجعوا فقد سلمت عيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال. (ش): ذكره ابن اسحق في «السيرة» بدون إسناد.

(٤) «الطبري» ١٣/ ٥٧٨.

نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ أي بريء من عهد جواركم، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزْعُ الملائكة»[1] أي يصفها للحرب ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة «سراقة بن مالك» فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضه من التراب فرمى بها وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة[2]، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين، وجواب (لَوْ) محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً قال أبو حيان: وحذف جواب (لَوْ) جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم[3] أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقولون لهم: ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل: كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً[4] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وأنه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه

(١) رواه مالك في الموطأ. (ش): ضعفه الألباني.
(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١١١. (ش): ضعيف. رواه الطبراني، و«الطبري» في «جامع البيان».
(٣) «البحر» ٤/ ٥٠٦.
(٤) «البيضاوي» ص ٢١٥.

بغير ذنب، وصيغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجرام يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب والكفر والإجرام ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي ذلك الذي حل بهم ن العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنبٍ ارتكبه، وأنه لا يبدل النعمة بالنقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي: نعمة الله على قريش محمد ﷺ فكفروا به وكذبوه، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب[1] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغيّر الله نعمته عليهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف وبعضهم الحجارة، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرّضوها للعذاب ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس: نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد[2]، ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ قد عاهد يهود بني قرظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر،

(١) «القرطبي» ٨/ ٢٩.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ٣٧١. (ش): ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» في علم التفسير» بسند ضعيف.
وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ قَالَ هُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِى عَبْدِ الدَّارِ رواه البخاري.

ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق[١] ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي فاقْتُلْهم ونكِّلْ بهم تنكيلاً شديداً يشرِّد غيرهم من الكفرة المجرمين[٢] ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لعلهم يَتَّعِظون بما شاهدوا فيَرْتَدِعُوا والمعنى: اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثًا بأمارات ظاهرة ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم - بينك وبينهم عهد - خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً[٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي لا يظنن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يُعجزون ربهم، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية قال الشهاب: وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام، فنُبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان[٤] ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي تُخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد: هم المنافقون وقال مجاهد: هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي تُعْطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئًا.

البَلاَغَة: ١ - ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ التنكير للتقليل.

٢ - ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ذكره ﷺ بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم.

---

(١) الفخر «الرازي» ١٥/ ١٦٢.

(٢) (ش): نَكَّلَ بِهِ تَنْكِيلاً إذا جَعَلَهُ نَكالاً وعِبْرة لِغَيْرِهِ. وَيُقَالُ: نَكَّلْت بِفُلاَنٍ إذا عَاقَبْتَهُ فِي جُرْم أَجْرمَه عُقوبةً تُنكِّل غَيْرَهُ عَنِ ارْتِكَابِ مِثْلِهِ. أَي تجعله إذا رَآهُ خَافَ أَن يَعْمَلَ عَمَلَهُ.

(٣) تفسير «القرطبي» ٨/ ٣٢.

(٤) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٠٢٤.

٣ - ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بين لفظ «الدنيا» و «القصوى» طباق.

٤ - ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان، وبين «يهلك» و «يحيا» طباقٌ.

٥ - ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً.

تنبيه: يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء، وقد جاء التعبير عاماً ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ ليشمل القوة المادية، والقوة الروحية، وجميع أسباب القوة، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة، وذخائر للحرب، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة.

قال الله تعالى:

وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ
فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ
عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟
مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ
لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾
لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ
مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم
مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

المناسبة: لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء، أمر هنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان،

وحرية الأديان، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان[١]، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان.

اللغَة: ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ مال يقال: جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له، وجنحت الإبل: إذا مالت أعناقها في السير، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري: وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر:

السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ ... وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ[٢]

﴿حَرِّضِ﴾ التحريض: الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحضيض ﴿يُثۡخِنَ﴾ قال الواحدي: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه، وأثخنته الجراح، والثخانة: والغلظة، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات[٣].

سَبَبُ النّزول: أ - عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فقال أبو بكر: يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله: «**مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ!**» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة على المشركين، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان، فقلت يا رسول الله: أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت، فقال ﷺ: «**أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية[٤].

---

(١) (ش): لقد شُرِع الجهاد في الإسلام لنَشْر عقيدة التوحيد في الأرض وظهور دين الإسلام على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾، وغيرها من الآيات التي تبين الحكمة التي من أجلها شرع الجهاد في سبيل الله لا من أجل ظروف الحياة ولا من أجل حرية الأديان.

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٣٣. (ش): معنى البيت أن الصلح تأخذ منها ما يكفيك من طول المدة، وأما الحرب فيكفيك منها القليل.

(٣) الفخر «الرازي» ١٥/ ٢٠١.

(٤) «زاد المسير» ٣/ ٣٨٠ والرواية لمسلم.

ب - لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب، فلم تحسب له من فدائه، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب، وقال النبي ﷺ «أضعفوا على العباس الفداء» فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ : لقد تركتني أتكفَّف قريشاً ما بقيت، فقال له ﷺ : وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل؟ فقال: أي الذهب؟ فقال: إنك قلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك، فقال يا ابن أخي: من أخبرك بهذا؟ قال: الله أخبرني فقال العباس: أشهد أنك صادق، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم، وأمر ابني أخيه فأسلما ففيهما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية[1].

التفسير: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس: يعني الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فأبدلهم بالعداوة حباً، وبالتباعد قرباً قال «القرطبي»: وكان تأليف القلوب مع العصبيّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته، لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بينهم بالإيمان، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[2] ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال

---

(١) «القرطبي» ٨/ ٤٢.

(ش): قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ، فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللهُ يَجْزِيكَ، فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخَوَيْكَ: نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَعُقَيْلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَحْدَمٍ أَخَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ» فَقَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الْفَضْلِ فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أُصِبْتُ فَهَذَا الْمَالُ لِبَنِي الْفَضْلِ، وَعَبْدِ اللهِ وَقُثَمَ؟» فَقَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٍ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الْفَضْلِ، فَاحْسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْعَلْ» فَفَدَى الْعَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٠] فَأَعْطَانِي مَكَانَ الْعِشْرِينَ الْأُوقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عِشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

رواه الحاكم وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» ووافقه الذهبي.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٥٣.

ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الله وحده كافيك، وكافي اتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري: المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي حض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ قال «أبو السعود»: هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم[2] والمعنى: إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم، بعون الله وتأييده ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وإن يوجد منكم مائة - بشرط الصبر عند اللقاء - تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فلذلك يُغلبون قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شق ذلك عليهم نُسِخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة، ومن كان الله معه فهو الغالب ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء[3] والمعنى: لا ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل؟ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم، وهو ثواب الآخرة، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي

---

(١) القول الأول معناه: حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة «زاد المعاد» بأدلة مقنعة، والقول الثاني روى عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلى في تفسير الجلالين، والأول أرجح.

(٢) تفسير «أبو السعود» ٢/ ٢٤٧.

(٣) انظر سبب النزول.

عزيز في ملكه لا يقهر ولا يُغلب، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطئ في اجتهاده[1] ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر»[2]، ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طَيِّبًا﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم، وفي الصحيح « **وجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي** »[3] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿ياأيها النبي قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الأسرى﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إِن يَعْلَمِ الله فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيمانـاً وإخلاصـاً، وصدقـاً في دعوى الإيمان ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب قال «البيضاوي»: نزلت في العباس رَضِيَ اللهُ عَنْه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و «نوفل» فقال يا محمد: تركتني أتكفف قريشـاً ما بقيت، فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه، فإن حدث بي حدث فهو كل ولعيالك! فقال العباس: ما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله، والله لم يطلع عليه أحد، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ! قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [4] ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فقواك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضـاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم بجميع ما يجري، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي صدقوا

(١) هذا القول اختاره «الرازي» وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس. انظر الفخر «الرازي» ١٥/ ٢٠٢.

(٢) (ش): ضعيف، رَوَاهُ الطَّبَرِيّ في «جامع البيان».

(٣) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسر الكبير للرازي. (ش): حديث: « جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي» رواه البخاري ومسلم.

(٤) تفسير «البيضاوي» ١/ ٢١٧.

الله ورسوله ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله، وهم المهاجرون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإرث، ولهذا أخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره. ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، الأنصار، الذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا بيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفار فقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أُمِرْتُم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون: ليس في هذه الآيات تكرار، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين، وهذه تضمنت الثناء والتشريف، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ هذا قِسْمٌ رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحُكْمُهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي أصحاب القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء: هذه ناسخة للإرث بالحِلْفِ والإخاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي أحاط بكل شيء

علمـاً، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو ختم للسورة في غاية البراعة.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ «الإطناب» وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين.

٢ - ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ...﴾ الآيات [١]

قال في «البحر»: انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر، وحذف نظيره من الثانية، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة، وحذفه من الأولى، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملتي التخفيف، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ مبالغة في شدة المطلوبية، وهذا النوع من البديع يسمى «الاحتباك»[٢] . فلله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته!!

«تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(٢) «البحر» المحيط ٤/ ٥١٦.

سُورَةُ التَّوْبَةِ ٩ ١٢٩

مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعني بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة[١]، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك وبعث أبا بكر الصديق أميرًا على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيها من الأحكام[٢]

نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكنت في حر شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحانًا لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزًا بينهم وبين المنافقين، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان -إلى جانب الأحكام الأخرى- هما:

أولًا: بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب.

ثانيًا: إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استفزهم الرسول لغزو الروم.

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حدًا، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضًا، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود بنو النضير «بنو قريظة» و«بنو قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة، لأن الناكثين

---

(١) البخاري ٨/ ٢٢٧. (ش): عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضى الله عنه قَالَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ رواه البخاري.

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٢٣. (ش): عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ بَعَثَنِى أَبُو بَكْرٍ فِى تِلْكَ الْحَجَّةِ فِى مُؤَذِّنِينَ، بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ. فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ فِى أَهْلِ مِنًى بِبَرَاءَةَ، وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين والمشركين من صلات، فلا عهد، ولا تعاهد، ولا سلم، ولا أمان، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم، وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ الآيات.

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾ الآية، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، وحقد على الإسلام والمسلمين حين استفزهم رسول الله ﷺ لغزو الروم، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين، والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دخيلة إلا كشَفَتْها، وترَكَتْهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءًا من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [1]﴾ ولهذا سماها بعض الصحابة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم، قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل ومنهم، ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحدا[2]، وروى عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدًا من المنافقين إلا نالت منه[3]، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس: سألت على ابن أبي طالب لِم لمْ يُكتب في براءة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ قال: لأن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان، وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين[4].

* وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت «الطابور الخامس»[5] المُنْدَسّ بين

---

(١) الآيات من (٤٢-١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٦١.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٢٤١.

(٤) «القرطبي» ٨/ ٦٣.

(٥) (ش): الطابور الخامس: جماعة من المواطنين تساعد العدُوَّ في السِّرِّ بالتجسس لصالحه.

صفوف المسلمين آلا وهم «المنافقون» الذين هم أشد خطرًا من المشركين ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم ديارًا، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام، أن يتخذوا بيوت الله أوكارًا للتخريب والتدمير، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين، في مسجدهم، الذي عرف باسم «مسجد الضرار» وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ ...﴾ الآيات ولم يكد النبي ﷺ يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله فاهدموه وحرقوه» فهدموه[1] وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم، وكيدهم، وخبثهم، وفضحهم إلى يوم الدين.

التسمية: تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسمًا، قال العلامة الزمخشري: لهذه السورة عدة أسماء: (براءة، والتوبة، والمقشقشة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدمدمة، وسورة العذاب) قال: لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أي تبرئ منه ،وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكل بهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم[2].

قال الله تعالى:

بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا

---

(١) (ش): قال الألباني : «ضعيف»، رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠- ٢٢١).

(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٤١.

ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟
فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ
وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ
وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا
يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا
ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

اللغة: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ برئتُ من الشيء: إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك، قال الزجاج: برئت من الرجل والدين براءةً، وبرئت من المرض بُروءاً[1] ﴿فَسِيحُوا۟﴾ السياحة: السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرهما ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ الأذان: الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿مَرْصَدٍ﴾ المرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم: رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر: إن المنية للفتى بالمرصد[2] ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿إِلًّا﴾ الإِلُّ: العهد والقرابة وأنشد عبيدة:

أَفْسَدُ النَّاسِ خُلُوفٌ خَلَفُوا ... الإِلَّ وأعراف الرَّحِمْ[3]

﴿نَّكَثُوٓا۟﴾ النكث: النقض وأصله في كل ما فُتل ثم حل ﴿وَلِيجَةً﴾ بطانة ودخيلة، قال

(١) «زاد المسير» ٣/ ٣٩٢.
(٢) «القرطبي» ٨/ ٧٣.
(٣) «البحر» المحيط ٥/ ٣.

أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة[١] وأصله من الولوج، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة وقال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين يفشي إليهم سره، ويعلمهم أمره. سَبَبُ النّزول: روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر، وفيهم «العباس بن عبد المطلب» فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيّروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: وهل لكم من محاسن؟ فقال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفك العاني - الأسير - فنزلت هذه الآية ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ...﴾ الآية[٢].

التفسير: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة، فقام علي فنادى في الناس بأربع: ألاّ يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك، وألا يطوف بالبيت عريان، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله[٣] ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مُذِلُّهم في الدنيا بالأسر والقتل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي إعلام إلى كافة الناس بتبرئ الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري: وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر[٤] ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغيّ والضلال، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً، ولا

---

(١) «الرازي» ١٦/ ٥.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ٤٠٧. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٣) (ش): عَنْ زَيْدِ بْنِ يُثَيْعٍ قَالَ سَأَلْنَا عَلِيًّا بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثْتَ فِي الْحَجَّةِ قَالَ بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ فَأَجَلُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ وَلاَ يَجْتَمِعُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا. (رواه الترمذي والحاكم، وصححه الألباني).

(٤) «الكشاف» ٢/ ٢٤٥.

تُعجزونه هربـاً ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجع يحل بهم قال أبو حيان: جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم، وفي هذا وعيد عظيم لهم[١] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم قال في «الكشاف»: وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتموا عليهم عهدهم، ولا تُجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر[٢] ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئـاً ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي وفوا العهد كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم قال «البيضاوي»: هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى[٣] قال ابن عباس: كان قد بقي لحيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر، فأتم ﷺ إليهم عهدهم ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي اقتلوهم في أي مكانٍ أو زمان من حلٍّ أو حرم، قال ابن عباس: في الحلِّ والحرم وفي الأشهر الحرم[٤] ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي بالأسر ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس: إن تَحَصَّنُوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يُضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في «البحر»: وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال[٥] ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي أَمِّنْهُ حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري: المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر، لا عهد بينك وبينه، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأَمِّنْهُ حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطّلع على حقيقة الأمر أقول: هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق، لأن المراد ليس النيل من الكافرين، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق

(١) «البحر» ٥/ ٨.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٤٦.
(٣) «البيضاوي» ٢١٨.
(٤) «زاد المسير» ٣/ ٣٩٨.
(٥) «البحر» المحيط ٥/ ١٠.

فيتبعوه، ويتركوا ما هم عليه من الضلال ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي ثم إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد أي كيف يكون عهد معتدٌ به عند الله ورسوله، ثم استدرك فقال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي لكن من عهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس: هم أهل مكة وقال ابن إسحاق: هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال «الطبري»: أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يحب من اتقى ربه، ووفى عهده، وترك الغدر والخيانة ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان: وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ أي وتمنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه وقال «الطبري»: المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوِزُون الحَدَّ في الظلم والبَغْي ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالأيمان ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ

ٱلْكُفْرِ﴾ أي رؤساء وصناديد الكفر ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا أيمان لهم ولا عهود يوفون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي كي يكفوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في الإسلام، قال «البيضاوي»: وهو متعلق بـ «قاتلوا» أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين[1] ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهود وطعنوا في دينكم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة، والبادئ أظلم، فما يمنعكم أن تقاتلوهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ ؟ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري: يعني أن قضية الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بما سواه[2].. ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أي قاتِلوهم يا معشر المؤمنين فتقالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أي يذلهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس: هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإن الفرج قريب[3] ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي يذهب ما بها من غيظ، وغمٍّ، وكرب، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدَتُه المبالغةُ في جَعْلِهم مسرورين بما يمنّ الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال «الرازي»: أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد، فكيف بها إذا اجتمعت[4]؟ ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كلام مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة قال «أبو السعود»: ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة[5] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾ أي منقطعة

(١) «البيضاوي» ص٢١٩.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٥٢.
(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٥٨. (ش): لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.
(٤) الفخر «الرازي» ١٦/ ٢.
(٥) «أبو السعود» ٢/ ٢٥٨.

بمعنى بل والهمزة أي بل أحسبتم يا معشر المؤمنين أن تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه! ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[1] أي والحال أنه لم يتبيّن المجاهد منكم من غيره، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين، والغرض من الآية: إن الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئاً من المساجد ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» يعنون الأصنام، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفه سجدوا للأصنام[2] والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عمارة مساجد الله، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبداً ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن من المصدق بوحدانية الله، الموقن بالآخرة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس: كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] يقول: إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة[3] قال أبو حيّان: وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ من جميع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من لا ترجى له الهداية، فكيف بمن هو عَارٍ منها؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة[4] ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ

---

(١) (ش): لمَّا: حرف نَفْي يجزم المضارع، ويقلبه إلى ماضٍ ممتدٍّ حتّى وقت الحديث مع توقّع حدوثه في المستقبل القريب «لمَّا يذاكر درسَه: لم يفعله إلى وقت الحديث- ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: لم يدخل حتّى الآن».

(٢) الصاوي على الجلالين ٢/ ١٤١.

(٣) «الطبري» ١/ ٩٤.

(٤) «البحر» المحيط ٥/ ٢٠.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الخطاب للمشركين[1]، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى: أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله؟ وهو رد على العباس حين قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج فنزلت قال «الطبري»: هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله[2] ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق، قال في «البحر»: ومعنى الآية إنكار أن يُشَبَّه المشركُون بالمؤمنين، وأعمالُهم المحبَطة بأعمالِهم المُثبَتَة[3]، ولما نفَى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4] ثم قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى: إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان[5]، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً، وأرفع ذكراً من سُقَاةِ الحاج، وعُمَّار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي أولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة، ورضوان كبير من ربٍّ عظيم ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ أي وجنات عالية، قطوفها دانية، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان: لما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، الرضوان، والجنان، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنَّى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلَّث بالجنان في مقابلة الهجرة

(١) انظر سبب النزول.

(٢) «الطبري» ١٠/ ٩٤.

(٣) (ش): أي إنكار تشبيه المشركين بالمؤمنين، وإنكار تشبيه أعمال المشركين المحبَطة بأعمال المؤمنين المُثبَتَة.

(٤) «البحر» المحيط ٥/ ٢٠.

(٥) «البحر» ٥/ ٢١.

وترك الأوطان وقال الألوسي: ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيمٌ مقيم جاء في غاية اللطافة، لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب[١].

البَلاَغَة: ١ - ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ التنوين للتفخيم والتقييد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل.

٢ - ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا يسمى «الأسلوب التهكمي» لأن البشارة بالعذاب تهكم به.

٣ - ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ شَبَّه مُضِيَّ الأشهر وانقضاءَها بالإنسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة.

٤ - ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب.

٥ - ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم.

٦ - ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما.

٧ - ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف.

فَائِدَة: عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية، فالحسية بالتشييد والبناء، والمعنوية بالصلاة وذكر الله، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[٢]، فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله.

لطيفَة: ذكر «القرطبي» أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أُنزل على محمد ﷺ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ فقرأها عليه بالجرِّ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ فقال الأعرابي: وأنا أيضاً أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال يا أمير المؤمنين: قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال: ما هكذا الآية يا أعرابي؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين! فقرأها عليه بالضم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه، فأمر عمر ألا يقرئ الناس إلا عالمٌ بلغة العرب[٣].

---

(١) «روح المعاني» ١٠/ ٧٠.

(٢) رواه الترمذي. (ش): ورواه ابن ماجه، وضعفه الألباني.

(٣) «القرطبي» ١/ ٢٤.

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى قبائح المشركين، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب بسبب الكفر، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتزوا بدينهم، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم، وأنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله.

اللغَة: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ جمع ولي: وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾ العشيرة: الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي: عشيرة الرجل أهله الأدنون وهو من العِشرة، أي: الصحبة لأنها من شأن القربى ﴿كَسَادَهَا﴾ كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بَارَ ولم يكن له نَفَاق[1] ﴿عَيۡلَةٗ﴾ فقراً يقال: عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر:

(١) (ش): بارتِ السِّلعةُ: كسدت ولم تجد من يشتريها لكثرتها وابتذالها. نفَقتِ البضاعةُ نَفَاقًا: راجَت كثُر طلَابها

وَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ [(١)]

﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية؛ لأنهم أعطوها جزاء ما مُنحوا من الأمن ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق والإفك الصرف يقال: أُفك الرجل، أي: قلب وصرُف.

سَبَبُ النّزول: قال الكلبي: لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: لقد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون: ناشدناك الله إن تدَعْنا من غير شيء فنضيع، فيَرِق فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ ..﴾[(٢)] الآية.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود: «إذا سمعت الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا فأَرْعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه» والمعنى: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعوانًا تودونهم وتحبونهم ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك[(٣)] ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء، والأبناء، والإخوان، والزوجات ومن سواهم ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي منازل تعجبكم الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا هو خبر كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة، وهذا وعيد لمن آثر أهله، أو ماله، أو وطنه، على الهجرة والجهاد، ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ

ورُغِبَ فيها.

(١) «البحر» ٥/ ٤.

(٢) «أسباب النزول» ص ١٤٠. (ش): موضوع، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

(٣) «القرطبي» ٨/ ٩٤.

﴿كَثِيرَةٍ﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة، وحروب عديدة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي مُنِيتُم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم: لن نغلب اليوم من قلة، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي وضاقت الأرض على رَحْبِها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال «الطبري»: يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده، وأنه ليس بكثرة العدد، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء، ويخلّي القليل فيهزم الكثير[1]، قيل للبراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر: ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ[2]

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه. ففروا، فما بقي أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه[3]، وقَالَ الْبَرَاءُ: كنا والله إذا حميَ البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه»[4]

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم قال «أبو السعود»: أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها[5] ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قال ابن عباس: يعني الملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام، وهو إشارة إلى إسلام هوازن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة واسع

---

(١) (ش): الذي في «تفسير «الطبري»» : «ويخلِّي الكثيرَ والقليلَ، فَيهْزِم الكثيرُ»: قال محققه الشيخ أحمد شاكر: «وإنما أراد أن الله يخلّي بين الكثير والقليل فلا ينصر القليل، فيهزم الكثير القليل، على ما جرت به العادة من غلبة الكثير على القليل».

(٢) (ش): (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وَأَبُو سُفْيَانَ هو أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

(٣) «الطبري» ١٠/ ١٠٣. (ش): عن إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ عن أَبِيه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُنَيْنًا ... فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ « شَاهَتِ الْوُجُوهُ». فَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلاَّ مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٤) (ش): قَالَ الْبَرَاءُ: « كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِى بِهِ وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِى يُحَاذِى بِهِ. يَعْنِى النَّبِىَّ ﷺ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). نَتَّقِى بِهِ: يَعْنِى النَّبِىَّ ﷺ.

(٥) «أبو السعود» ٢/ ٢٦٣.

الرحمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ أي قذر لخبث باطنهم قال ابن عباس: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وقال الحسن: من صافح مشركًا فليتوضأ [(١)]، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخُبْث اعتقادِهم وكُفْرهم بالله جُعِلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغةً في الوصف على حد قولهم: عليٌّ أسدٌ أي كالأسد ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أي فلا يدخلوا الحرم، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله قال «أبو السعود»: وقيل: المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث «**وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ**»[(٢)] وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه قال المفسرون: لما مُنع المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات إليهم في المواسم، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم: من أين تأكلون؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة، ورزقهم الغنائم والجزية[(٣)] ﴿إِن شَآءَ﴾ أي يغنيكم بإرادته ومشيئته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليم بما يصلحكم، حكيم فيما حكم في المشركين. . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان، فإن اليهود يقولون عزير ابن الله، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه، ولا رسوله في سنته، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي أذلاء حقيرون مقهورون بسلطان الإسلام، ثم ذكر تعالى طرفًا من قبائحهم فقال ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ أي نسب اللُّعَناءُ إلى اللهِ الولدَ،

---

(١) «القرطبي» ٨/ ١٠٣، وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر «الرازي» والألوسي وهو ظاهر الآية، والجمهور على أنه على التشبيه.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٦٤. (ش): رواه البخاري ومسلم. (بَعْدَ الْعَامِ): أي بَعْدَ هذا الْعَام.

(٣) «انظر «الطبري»» ١٠/ ١٠٧.

وهو واحد أحد فرد صمد قال «البيضاوي»: وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله[1] ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ أي وزعم النصارى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله قالوا: لأن عيسى ولد بدون أب، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب، فلا بد أن يكون ابن الله، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في «التسهيل»: يتضمن معنيين: أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه: هذا قولك بلسانك[2] ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم: الملائكة بنات الله﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً قال «الرازي»: الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم، والله تعالى عجَّب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل[3] ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى: أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم[4] وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم: «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، قال وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت يا رسول الله: لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام: «أليس يُحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه، ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟فقلت: بلى، قال: فذلك عبادتهم»[5] ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذه النصارى ربـًا معبوداً ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريد هؤلاء

---

(١) «البيضاوي» ص ٢٢٢.

(٢) «التسهيل» ٢/ ٧٤.

(٣) «الرازي» ١٦/ ٣٦. (ش): التعجب ثابت لله صفة من صفاته الفعلية على ما يليق به سبحانه وتعالى.

(٤) (ش): اعتبر الله تعالى طاعتهم لهم في تحليل ما حرَّم وتحريم ما أحلَّ عبادة، فكيف يقال: إنهم لم يعبدوهم، وقد بَيَّنَ النبي - صلى الله عليه وسلم - لعدِيٍّ معنى عبادتهم لهم.

(٥) الألوسي ١٠/ ٨٤. (ش): رواه أحمد والترمذي والطبراني ، وحسنه الألباني. الوثن:ما يُعْبَدُ من دون الله تعالى، وأراد به ها هنا الصليب. أحبارهم:الأحبار:جمع حَبْر، وهو العالم.

الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم الحقيرة، بمجرد جدالهم وافترائهم، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إلى ذلك ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي ويأبى الله إلا أنْ يُعْلِيَه ويرفعَ شأنَه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره.

البَلاَغَة: ١ - ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

٢ - ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس، والفرج بعد الشدة.

٣ - ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة.

٤ - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، ومثله ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامتثال أوامرهم في التحريم والتحليل.

٥ - ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ عبَّر عن الدخول بالقرب للمبالغة.

٦ - ﴿يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أراد به نور الإسلام فإن الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة. وهي من لطائف الاستعارات.

لطيفَة: قال العلامة «القرطبي»: دل قوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً:

يَقُولُونَ لِي: دَارُ الْأَحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ ... وأنت كَئِيبٌ إِنَّ ذَا لَعَجِيبُ
فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي دِيَارٌ قَرِيبَةٌ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ

أَثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ
ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ
عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ
أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟
خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ
ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ
لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

المناسبة: لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا، وذلك نهاية الذل والدناءة، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله.

اللغة: ﴿ٱلْأَحْبَارِ﴾ علماء اليهود ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك:

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا [1]

﴿يَكْنِزُونَ﴾ أصل الكنز في اللغة: الجمع والضم، ومنه حديث «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُ الْمَرْءُ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**»[2] أي يضمه لنفسه ويجمعه، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال «الطبري»: الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض

(١) «القرطبي» ٨/ ١٢٠.

(٢) (ش): رواه أبو داود، وضعفه الألباني.

كان أو على ظهرها[١] ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ الكي: إلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال «آخر الدواء الكي» ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ التأخير يقال: نسأه وأنسأه إذا أخره ومنه حديث «**وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**»[٢] أي يُؤَخَّر له في أجله قال الزمخشري: النسِيءُ: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ليوافقوا والمواطأة: الموافقة يقال: تواطأ القوم: إذا اتفقوا على أمر خفية ﴿ٱنفِرُواْ﴾ النفر: الخروج بسرعة، ومنه ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ أصله تثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عَرَضًا﴾ العرض: ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث «الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر»[٣] ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري: الشقة السفر البعيد[٤]، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال: **شُقَّةٌ شاقَّةٌ**.

سَبَبُ النّزول: لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين، أمر الناس بالجهاد، لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من البأس، وجدبٍ من البلاد، وشدةٍ من الحر، حين أثمرت النخل، وطابت الثمار، فعظم على الناس غزو الروم، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية[٥].

التفسير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله[٦] إن كثيراً من علماء اليهود «الأحبار» وعلماء النصارى «الرهبان» ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ليأخذون أموال الناس بالحرام، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام قال ابن كثير: والمقصود التحذير من علماء السوء، وعُبَّادِ الضلال قال ابن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى[٧] ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يؤدون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر: الكنز ما لم تُؤد زكاته، وما أديت زكاته فليس بكنز ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أسلوب

---

(١) «الطبري» ١/ ١٢١.
(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٣) (ش): رواه الشافعي في «مُسْنَدِه» والبيهقي، وضعفه الألباني.
(٤) «القرطبي» ٨/ ١٥٤.
(٥) «أسباب النزول» للواحدى ص ١٤١. (ش): ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان».
(٦) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.
(٧) «المختصر» ٢/ ١٣٨.

تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري: وإنما قَرَنَ بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يُعطِي من المسلمين مِن طيب ماله- سواءٌ[1] في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[2] ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنزٍ فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[3]، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته، فإذا جاء أعرض بجانبه، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره، قال «القرطبي»: الكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء[4] ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم «**ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**» ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشر شهراً على منازل القمر، فالمعتبر به الشهور القمرية إذا عليها يدور فلك الأحكام الشرعية ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس: كتبه يوم خلق السماوات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ أي منها أربعة شهور محرمة هي: «ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب» وسميت حرماً لأنها مُعَظَّمَةٌ محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويَحْرُم القتال فيها ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي ذلك الشرع المستقيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بِهَتْك حُرْمَتِهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر

(١) (ش): سواءٌ: متساوون.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٦٦.
(٣) «الطبري» ١٠/ ١٢٤.
(٤) «القرطبي» ٨/ ١٢٩.

مضموم إلى كفرهم قال المفسرون: كان العرب أهل حروب وغارات، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره، فربما أحلوا (المحرم) وحرموا (صفر) حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يُضَلُّ بسببه الكافرون ضلالاً على ضلالهم ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له، فيقول أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب، ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمنا (المحرم)، وأخرنا (صفر)، ثم يجيء العام المقبل ويقول: إنا قد حرمنا (صفر) وأخرنا (المحرم) فذلك قوله تعالى ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ[1]﴾ ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم: اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه؟! ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي؟ ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له، ثم توعَّدهم على ترك الجهاد فقال ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم[2] ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيرًا منكم، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال «الرازي»: وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإذا توعد بالعقاب فعل[3] ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي إن لا تنصروا

(١) «الطبري» ١٠/ ١٣٤.
(٢) «الطبري» ١٠/ ١٣١.
(٣) «الرازي» ١٦/ ٦١.

رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره: فسينصره الله، دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ والمعنى: إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نَصَره حين كان ثاني اثنين، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، وأسند إخراجه إلى الكفار لأنهم ألجئوه إلى الخروج وتآمروا على قتله حتى اضطُرُّوا إلى الهجرة ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثَوْر ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطييباً: لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر، روى «الطبري» عن أنس أن أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْه قال «بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار، وأقدام المشركين فوق رءوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»[1] وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي قَوَّاهُ بجنوده من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي الغالبة الظاهرة، أعزَّ الله بها المسلمين، وأذل الشرك والمشركين ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيبًا وشبانًا، مشاة وركبانًا، في جميع الظروف والأحوال، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في «البحر»: والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله[2]، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وموقف المثبطين المنافقين منهم فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي لو كان ما دعوا إليه غُنمًا قريبًا سهل المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي وسفراً وسطًا ليس ببعيد ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أي لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة

(١) «الطبري» ١٠/ ١٣٦. (ش): عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «البحر» ٥/ ٤٤.

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي وسيحلفون لكم معتذرين[1] بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيْمانِهم الكاذبة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ تلطف في عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام[2] والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار!! ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد: نزلت في المنافقين قال أناس منهم: «استأذِنُوا رسول الله، فإن أذِنَ لكم فاقعُدوا[3]، وإن لم يأذن لكم فاقْعُدوا»، فقد كانوا مُصِرِّين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الإيمان فقال ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي لا يستأذنك يا محمد عن الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ أي كراهية الجهاد بالمال والنفس لأنهم يعلمون ما أعده الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه؟ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي شَكَّتْ قلوبُهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ.

---

(١) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية.

(٢) قال المفسرون: من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه، وعلو قدره، وسمو منزلته، بشره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب، ولو قال له معاتبًا: لم أذنت لهم؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزنًا وكمدًا قال عون: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة، أقول: وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ. **(ش):** أي ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية حيث قال: ﴿عَفَا الله عَنكَ﴾ كناية عن الجناية، لأن العفو رادف لها. ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت.

(٣) «الطبري» ١١/ ١٤٢.

٣ - ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة.

٤ - ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة.

٥ - ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ «كلمة الذين كفروا» استعارة عن الشرك كما أن «كلمة الله» استعارة عن الإيمان والتوحيد.

٧ - ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ بينهما طباق.

٨ - ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس.

٩ - ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ خبر يقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال: إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب.

فَائِدَة: روي أن أعرابياً قال لابن عمر: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ فقال ابن عمر: **مَنْ كَنَزَهَا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا فَوَيْلٌ لَهُ إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ الزَّكَاةُ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ جَعَلَهَا اللهُ طَهُورًا لِلأَمْوَالِ. ثُمَّ الْتَفَتَ فَقَالَ مَا أُبَالِي لَوْ كَانَ لِي أُحُدٌ ذَهَبًا أَعْلَمُ عَدَدَهُ وَأُزَكِّيهِ وَأَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.**[1]

تنبيه: دلت الآية ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار، ورفيقه في الهجرة، ولهذا قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى.

لطيفَة: عن حيان بن زيد قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، فرأيت شيخاً كبيراً هرماً، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبَلْتُ عليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك قال: فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي: استنفرنا الله خفاقاً وثقالاً، ألا إنه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده الله فيبقيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عَزَّ وَجَلَّ[2].

أقول: رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى.

قال الله تعالى:

وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ

---

(١) رواه ابن ماجه. (ش): وصححه الألباني.

(٢) «الطبري» ١٠/ ١٣٨.

ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ
حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ
أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ
تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ
﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ
عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ
مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟
بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا
أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟
وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا
ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد، والمكر، وإثارة الفتن بين المسلمين، والفرح بأذاهم، وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً واندحاراً بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة، وذكر كثيراً من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة.

اللغة: ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ الانبعاث: الانطلاق في الأمر ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ التثبيط: رد الإنسان عن الفعل الذي همَّ به ﴿خَبَالًا﴾ الخبال: الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ الإيضاع: سرعة السير، قال الراجز:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ[1]

يقال: وضع البعير إذا أسرع السير، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً[2] ﴿يَجْمَحُونَ﴾ جمح: نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يَلْمِزُكَ﴾ اللمز: العيب

(١) (ش): الجَذَعُ من الرِّجال: الشَّابّ. الخَبَب: نوع من أنواع سير الفرس بحيث تمسّ أقدامُها الأرضَ بشكل متتابع.
(٢) «الرازي» ١٦/ ٨١.

يقال: لمزه إذا غابه قال الجوهري: وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لّماز أي عيَّاب[١] ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الغارم: المديون قال الزجاج: أصل الغرم لزوم ما يشق، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان[٢].

سَبَبُ النّزول: «لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال للجد بن قيس - وكان منافقاً - يا أبا وهب: هل لك في جلاد بني الأصفر - يعني الروم - تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال يا رسول الله: لقد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وأذَنْ لي في القعود وأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال: قد أذنت لك فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ[٣]﴾» الآية.

التفسير: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الاذى والمضرة ولهذا قال ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم[٤] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم يوم أحد ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي دبروا لك المكايد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم

---

(١) الصحاح للجوهري.

(٢) «البحر» ٥/ ٣٥.

(٣) «أسباب النزول» ص ١٤٢. **(ش):** ضعيف أخرجه الطبراني، والواحدي في «أسباب النزول».

(٤) وقال مجاهد: المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس: نزلت في «الجد ابن قيس» حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر، فقال يا رسول الله: ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء[1] ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال «أبو السعود»: وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين[2] ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، وفيه وعيد شديد ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة، سواء كانت ظفراً أو غنيمة، يسؤهم ذلك ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا: قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون[3] ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا هو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين: إما النصر، وإما الشهادة، وكل واحدة منهما شيء حسن!! ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين: أن يهلككم الله بعذابٍ من عنده يستأصل به شأفتكم، أو يقتلكم بأيدينا ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال «الطبري»: وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] والمعنى لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً[4] ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين

(١) انظر سبب النزول.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٧٥.
(٣) قال «القرطبي»: المعنى يُعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بذلك.
(٤) «الطبري» ١٠/ ١٥٢.

خارجين عن طاعة الله، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي ولا ينفقون أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرماً قال في «البحر»: ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون، لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً ولا يخافون عقاباً، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما: الصلاة، والنفقة، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية[1] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال «البيضاوي»: وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب[2] ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ أي ويموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي ويُقْسِمون بالله لكم إنهم لَمُؤمِنون مثلُكم، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين، فيُظْهِرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا ﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ أي سراديب يختفون فيها ﴿أَوْ مُدَّخَلًا ﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً كالفرس الجموح، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أنَّ المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ ﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له «ذو الخويصرة» فقال: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ : « **وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ**

(١) «البحر» المحيط ٥/ ٥٣.
(٢) «البيضاوي» ص ٢٢٦.

إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟»[١] ، الحديث[٢]. ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلَّت قال «أبو السعود»: وذكرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه[٣] ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أي إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون، وجواب ﴿ وَلَوْ ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال «الرازي»: وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل: لو جئتنا. . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً[٤]، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ قال «الطبري»: أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله جل ثناؤه[٥] والآية تقتضي حَصْرَ الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم، والفقير الذي له بُلْغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له قال يونس: سألت اعرابيًا أفقير أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين، وقيل: المسكين أحسن حالاً من الفقير، والمسألة خلافية ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الجُبَاة الذين يجمعون الصدقات ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم قوم من أشراف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام، وروى «الطبري» عن صفوان بن أمية قال: **وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**[٦] ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدين ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي

---

(١) «روح المعاني» ١٠/ ١١٩.

(٢) (ش): عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ بَيْنَا النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - يَقْسِمُ ذَاتَ يَوْمٍ قِسْمًا فَقَالَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ - رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ - يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ . قَالَ « وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ » . (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- بِالْجِعِرَّانَةِ وَهُوَ يَقْسِمُ التِّبْرَ وَالْغَنَائِمَ وَهُوَ فِى حِجْرِ بِلاَلٍ فَقَالَ رَجُلٌ اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ « وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ بَعْدِى إِذَا لَمْ أَعْدِلْ ». (رواه ابن ماجه ، وصححه الألباني).

(٣) «أبو السعود» ٢/ ٢٧٧.

(٤) «الرازي» ١٦/ ٩٩.

(٥) ١٠/ ١٥٧. (ش): الذي في تفسير «الطبري» بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر: «ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، ومن سماهم الله جل ثناؤه». وقال الشيخ أحمد شاكر: «في المطبوعة: «لا ينال الصدقات»، وهو كلام غير مستقيم، والصواب ما كان في المخطوطة».

(٦) «الطبري» ١٠/ ١٦٢. (ش): رَوَاهُ مُسْلِمٌ والترمذي.

فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمصالح العباد، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في «التسهيل»: وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللمز في الصدقات[١].

البَلاَغَة: ١ - ﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿اقعدوا مَعَ القاعدين﴾.

٢ - ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ قال الطيبي: فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل، والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم[٢].

٣ - ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم، وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على الثبات والاستمرار.

٤ - ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ..﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥ - ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر، وإظهار الاسم الجليل مكان الاضمار لتربية الروعة والمهابة.

٦ - ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

٧ - ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة.

لطيفَة: قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزَّمْنَى الذين شأنُهم القعود والجُثُوم في البيوت[٣] على حد قول القائل:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي[٤]

تنبيه: قال ابن كثير: لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدة، وحاربته يهود

---

(١) التسهيل ٢/ ٧٩.

(٢) «روح المعاني» ١٠/ ١١٢.

(٣) «الكشاف» ٢/ ٣٧٦. (ش): الزَّمْنَى: الزَّمِنُ: من طال مرضُه ودام زَمانًا طويلًا أو ضعُف بكبَر سِنٍّ أو طُول عِلّة. جثَم الشَّخصُ جُثُومًا: لزِم مكانَه فلم يبرح.

(٤) (ش): في البيت أمران (دع، واقعد) يُراد منهما التوبيخ، أو التحضيض. فالطَّاعِمُ الْكَاسِي، أَيِ الْمَطْعُومُ الْمَكْسُوُّ. أي من كُفِيَ طعامَه وكساءَه، فاكتفَى ولم يسْعَ للمكارم. والمكارم لا ينالُها إلا مَن رَحل في طلبها، ولا ينالها المقيمُ في منزله.

المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابنُ أُبَيّ وأصحابه: هذا أمر قد توجه - يعني أقبل - فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ (١)﴾.

قال الله تعالى:

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ۚ فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم، وتحذيراً

(١) «المختصر» ٢/ ١٤٧.

للمؤمنين من مكائدهم، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ، وإقدامهم على الإيمان الكاذبة، واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة.

اللغَة: ﴿أُذُنٌ﴾ قال الجوهري: قال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد، يستوي فيه الواحد والجمع[1] وقال الزمخشري: الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع[2]. قال الشاعر:

قَدْ صِرْتُ أُذُنًا لِلْوُشَاةِ سَمِيعَةً ... يَنَالُونَ مِنْ عِرْضِي وَلَوْ شِئْتُ مَا نَالُوا[3]

﴿يُحَادِدِ﴾ المحادة: المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ الخلاق: النصيب كقوله ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقد تقدم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ الخوض: الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ الائتفاك: الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتكفت بهم أي انقلبت، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي:

وَمَا الْخَسْفُ أَنْ تَلْقَى أَسَافِلَ بَلْدَةٍ ... بَلْ أَنْ يَسُودَ الْأَرَاذِلُ[4]

سَبَبُ النّزول: أ - كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال «الجلاس بن سويد» : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ...﴾[5].

ب - قال مجاهد: كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ...﴾[6] الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يصدّق بكل خبر يسمعه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر، يسمع الخير فيعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ

(١) الصحاح للجوهري.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٨٤.
(٣) (ش): الواشي: النمّام.
(٤) (ش): أَرذَلُ: دونٌ خسيسٌ رديءٌ.
(٥) «أسباب النزول» ص ١٤٣. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.
(٦) «زاد المسير» ٣/ ٤٦٣. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن مجاهد.

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يصدِّق الله فيما يقول، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجع في الآخرة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئًا فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة، والمتابعة، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كانوا حقًا مؤمنين فلْيُرْضُوا اللهَ ورسولَه ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول، والاستفهام للتوبيخ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم، والشقاء الكبير، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي مُظْهِرٌ ما تُخْفُونه وتحذرون ظهوره من النفاق، قال الزمخشري: كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي، حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[1] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، في حقك وفي حق الإسلام، ليقولون لك ما كنا جادين، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال «الطبري»: بَيْنَا[2] رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات!! فأطلع الله نبيه فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله: إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت[3] ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٨٦.

(٢) (ش): بَيْنَا: بينما.

(٣) هذه رواية قتادة كذا في «الطبري». (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة. وعن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ- يَعْنِي رسول الله ﷺ وأصحابه- ، فقال رجل في المجلس: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا بحَقَبِ ناقة رسول الله تنْكُبُه الحجارة وهو يقول: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.(حسن، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير في «جامع البيان»، =

تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي قل لهؤلاء المنافقين: أتستهزئون بدين الله وشرعه، وكتابه ورسوله؟ والاستفهام للتوبيخ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ أي إن نعف عن فريقٍ منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي نعذب فريقًا آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في «الكشاف»: وأريد بقوله ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٦] (١) ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي يمسكون أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمَنْسِيِّين(٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي الكاملون

= وقال الشيخ مقبل بن هادي في «الصحيح المسند من «أسباب النزول»» (ص: ١٠٩): الحديث رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يخرج له مسلم إلا في الشواهد، وأخرجه «الطبري» وله شاهد بسندٍ حسن عند ابن أبي حاتم». الحَقَبُ: حَبْلٌ يُشَدُّ به الرَّحْل في بطن البعير. تنْكُبُه الحجارة: تصيبه وتؤذيه.

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٨٧.

(٢) (ش): للنسيان معنيان: أحدهما: الذهول عن شيء معلوم مثل قوله تعالى: (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) البقرة/ ٢٨٦. وهذا المعنى للنسيان منتف عن الله عز وجل بالدليلين السمعي، والعقلي. أما السمعي: فقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾ [طه:٥٢]. وأما العقلي: فإن النسيان نقص، والله تعالى منزه عن النقص، موصوف بالكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٦٠]. وعلى هذا فلا يجوز وصف الله بالنسيان بهذا المعنى على كل حال. والمعنى الثاني للنسيان: الترْك عن علم وعمد، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٤٤]. وهذا المعنى من النسيان ثابت لله تعالى عز وجل قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:١٤]. وقال تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧]. في صحيح مسلم أن الله لأ يَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ له: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. وتَرْكُه ـ للشيء صفة من صفاته الفعلية الواقعة بمشيئته التابعة لحكمته، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف:٩٩]. وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت:٣٥]. والنصوص في ثبوت الترك وغيره من أفعاله المتعلقة بمشيئته كثيرة معلومة، وهي دالة على كمال قدرته وسلطانه. وقيام هذه الأفعال به سبحانه لا يماثل قيامها بالمخلوقين، وإن شاركه في أصل المعنى، كما هو معلوم عند أهل السنة. [باختصار من «فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (١/ ١٧٢-١٧٤).

في التمرد والعصيان، والخروج عن طاعة الرحمن، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلائهم في نار جهنم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي هي كفايتهم في العذاب، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً، وأكثر أولاداً، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم[1] ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال «الطبري»: المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي وأولئك هما الكاملون في الخسران ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي ألم يأتِ هؤلاء المنافقين خبرُ الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلَّ بهم من العقوبة؟ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي قوم نوح الذين أُهْلِكُوا بالطوفان وقوم هود «عاد» الذين أُهْلِكُوا بالريح، وقوم صالح «ثمود» الذين أُهْلِكُوا بالصيحة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أُهْلِكُوا بعذاب يوم الظُّلَّة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي، أَفَأَمِنَ هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي هم إخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي يأمرون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله،

(١) «الطبري» ١٠/ ١٧٥.

وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي يُعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي سيدخلهم في رحمته، ويفيض عليهم جلائل نعمته[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي غالب، لا يُغلب من أطاعه ولا يُذَلُّ مَن عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة، في النعمة والنقمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنات وارفة الظلال، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لابثين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والاقامة قال الحسن: هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[2] ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله، وفي الحديث **يَقُولُ الله تعالى لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا** »[3] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال ابن عباس: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والإرعاب[4] ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال ابن سلول للأنصار: ألا تنصرون أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « **سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ** » فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية[5] ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ هي قول ابن سلول « **لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ** » ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿وَهَمُّوا۟

(١) (ش): جلائلُ النِّعم: النِّعم العظيمة الشأن أو القدر.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٢٨٩.
(٣) «الطبري» ١٠/ ١٨٢ والحديث في الصحاح. (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٤) (ش): أرعبَ العدوَّ: خوَّفه وأفزعه.
(٥) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٢٠٤. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة.

بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قال ابن كثير: هم نفر من المنافقين همّوا بالفتْك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً[1] ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته، ويُمْن سعادته، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب.. ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب.

البَلاَغَة: ١ - ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد.

٢ - ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً «يُؤْذُونَه» تعظيماً لشأنه عليه السلام وجمعًا له بين الرتبتين العظيمتين «النبوة والرسالة» وإضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف[2].

٣ - ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة.

٤ - ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل، كما أن بسطها كناية عن الجودة والكرم.

٥ - ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته.

٦ - ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والعتاب.

٧ - ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ ...﴾ الآية فيه إطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس، عن الشيء النفيس.

٨ - ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ...﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل «ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم» البيت[3].

---

(١) (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره ابن كثير في «تفسيره» والواحدي في «أسباب النزول» عن الضحاك.

(٢) أفاده في «البحر» ٥/ ٦٣.

(٣) (ش): قال الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فُلول: جمع فَلّ وهو ثَلْم، يصيب حد السيف من الضرب الشديد به. يقال: تثلَّم السَّيفُ: ضَعُف حده. القراع: التقاتل ضربًا بالسيوف والرماح، والكتائب: الجيوش المحاربة. كأنه يقول: إن كان فلول السيف من القراع عيبًا فإنهم ذَوُو عيب، وإن لم يكن هذا عيبًا فليس فيهم عيب البتة لأنه لا شيء سوى هذا.

فَائِدَة: روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ . . ﴾ [التوبة: ٢٩] وسيف لأهل الكتاب ﴿ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ وسيف للمنافقين ﴿ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ وسيف للبغاة ﴿ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩][1].

لطيفَة: قال الإمام الفخر: لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن، عن المنافق، فالمنافق يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات، وإذا أُمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويثبط غيره، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل، ويؤتي الزكاة، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين، وصفات المنافقين بقوله ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ كما يقابل في الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة[2].

قال الله تعالى:

وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن

(١) «المختصر» ٢/ ١٥٦.

(٢) تفسير «الرازي» ١٦/ ١٣٠ بشيء من التصريف.

مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ
ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ
إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ
أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا
يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين، وتفضح أسرارهم، وتكشف أحوالهم، باعتبار خطرهم الداهم عن الإسلام والمسلمين.

اللغَة: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ قال الليث: يقال أعقبت فلانـًا ندامة إذا صارت عاقبة أمره ذلك، ويقال: أكل أكلة أعقبته سقمـًا أي حصل له بها السقم قال الهذلي:

أَوْدَى[1] بَنِيَّ وأَعْقَبونِي حَسْرَةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ[2]

﴿سِرَّهُمْ ﴾ السر: ما ينطوي عليه الصدر ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ النجوى: ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي، كأن المتناجين منعـًا إدخال غيرهما معهما ﴿يَلْمِزُونَ ﴾ يعيبون واللمز: العيب ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ المخلف، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿ٱلطَّوْلِ ﴾ الغِنَى ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾ جمع مُعَذِّر كمقصِّر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري: هو الذي يعتذر بالكذب[3] وأصله من العذر وفي الأمثال «أُعذر من أنذر» أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأنذرك.

سَبَبُ النّزول: أ - «روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ادع الله أن يرزقني مالاً فقال: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير، لا تطيقه، فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فلم يزال يراجعه حتى دعا له، فاتخذ غنمـًا فنمَت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديـًا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه يخبره فقال: يا ويح ثعلبة ثلاثـًا،

---

(١) (ش): أَوْدَى: هلَك.
(٢) «الرازي» ١٦/ ١٤٢.
(٣) «القرطبي» ٨/ ٢٢٥.

فأنزل الله ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ . .﴾ الآية[1]» فهلك في خلافة عثمان.

ب - عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فقال يا رسول الله: أعلى عدو الله تصلي؟ فقال: «**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ. إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ قَدْ قِيلَ لِي** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية **لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ**»، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا . . .﴾ [التوبة:٨٤][2] الآية.

التفسير: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي بخلوا بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ما يخفونه في صدورهم، وما يتحدثون به بينهم؟ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ

---

(١) «أسباب النزول» ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير: «ثعلبة بن أبي حاطب» الصحابي المشهور، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم.

(ش): القصة التي ذكرها المؤلف عن ««أسباب النزول»» للواحدي إسنادها ضعيف جداً. تنبيه: إذا ثبت لرجل أو لامرأة الصحبة فلا يمكن أن يقبل لمزة بالنفاق إلا بإسناد صحيح، ولهذا لا يصح قول من قال: إن ثعلبة بن حاطب الأنصاري - رضي الله عنه - وهو ممن شهد غزوة بدر ـ هو المقصود بقوله - عز وجل -: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (التوبة: ٧٥). وهذه القصة ـ التي يذكرها كثير من الخطباء في أثناء حديثهم عن الزكاة ـ لا تصح سندًا ولا مَتْنًا، أما سندًا فهى من طريق معان بن رفاعة عن على بن يزيد، وكلاهما لا يصح حديثه. وأما متنًا فالنبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قرر أن مانع الزكاة تؤخذ منه قسرًا، وحارب أبو بكر الصديق ت مانعي الزكاة، فكيف يرفضُ أخْذَها رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأبو بكر وعمر - رضي الله عنهما؟ وهذه القصة المكذوبة قد أشار إلى ضعفها ابنُ حزم والبيهقيُّ و«القرطبي» والذهبي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والألباني. (انظر: الشهاب الثاقب فى الذب عن الصحابى الجليل ثعلبة بن حاطب رضى الله عنه، لسليم الهلالي).

(٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦١. (ش): رواه البخاري ومسلم والترمذي.

ٱلْغُيُوبِ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس؟ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهزءون منهم روى «الطبري» عن ابن عباس قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ، وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من تمر، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءٌ، وإن كان الله ورسوله لَغَنِيَّيْن عن هذا الصاع فنزلت[1] ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة[2] ﴿وَلَهُمْ

(١) «الطبري» ١٠/ ١٩٤. (ش): ضعيف؛ لانقطاعه، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» عن قتادة. وعَنْ أَبِى مَسْعُودٍ قَالَ: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ إِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلاَّ رِئَاءً. فَنَزَلَتْ (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ) الآيَةَ. (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وفي «صحيح مسلم» أن أَبَا خَيْثَمَةَ الأَنْصَارِىُّ هُوَ الَّذِى تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ.

(٢) المشاكلة: اتفاق الكلمتين لفظًا واختلافهما معنى. (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل:٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع: الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ.
الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ.
الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها.
فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا. فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾. وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾. وقوله: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب موجع، هو عذاب الآخرة المقيم ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قال الزمخشري: والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير[1] والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالَفَةً له حين سار وأقاموا ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد، قال «أبو السعود»: وإنما قال ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله «وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو» إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه مِن أَجَلِّ الرغائب، وأشرف المطالب، التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال: الفرح بالقعود، وكراهية الجهاد، ونهي الغير عن ذلك[2]، قال تعلى رداً عليهم ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي قل لهم يا محمد: نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى، وحر جهنم دائم لا يفتر، فما لكم لا تحذرون نار جهنم؟ قال الزمخشري: وهذا استجهال لهم، لأن من تصوَّن من مشقة ساعة، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل[3] ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ أي لو كانوا يفهمون لَنَفَروا مع الرسول ﷺ في الحر، لِيَتَّقُوا به حَرَّ جهنم الذي هو أضعاف أضعاف وهذا ولكنهم «كالمستجير من الرمضاء بالنار» ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ أمر يراد به الخبر معناه: فسيضحكون قليلاً، وسيبكون كثيراً، قال ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً[4]

(١) «الكشاف» ٢/ ٢٩٥.
(٢) «أبو السعود» ٢/ ٢٨٦.
(٣) «الكشاف» ٢/ ٢٩٦.
(٤) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦٠.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي جزاءً لهم ما اجترحوا من فنون المعاصي ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي فإن ردك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله، وهو خبر معناه النهي للمبالغة، جَارٍ مجرَى الذَّمّ لهم لإظهار نفاقهم ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ أي لا تصل يا محمد على أحدٍ من هؤلاء المنافقين إذا مات، لأن صلاتك رحمة، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ أي لا تقف على قبره للدفن، أو للزيارة والدعاء[1] ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يُظْهِرون الإيمان ويُبْطِنون الكفر ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان، نزلت في ابن سلول[2] ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين، وجاهدوا مع رسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ أي استأذنك في التخلف أُولوا الغِنَى والمال الكثير ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي دعنا نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر، قال تعالى تقبيحاً لهم وذماً ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي خُتِم عليها ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ قال «الرازي»: لما شرح حال المنافقين، بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه[3] والمعنى: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا، فقد جاهد مَن هو خيرٌ منهم وأخلصُ نيَّةً واعتقاداً ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ أي لهم منافع الدارين:

---

(١) (ش): أي الدعاء له بالمغفرة.

(٢) انظر سبب النزول السابق.

(٣) «الرازي» ١٦/ ١٥٧.

النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي لابثين في الجنة أبداً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي في ترك الجهاد، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة، قال «البيضاوي»: هم «أسد» و «غطفان» استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال[1] ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا، والنار في الآخرة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ أي ليس على الشيوخ المُسِنِّين، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي إثم في القعود ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا بالناس ولم يُثَبِّطوهم[2]، ولم يثيروا الفتن، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في «التسهيل»: وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا الله ورسوله، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[3]، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه: لا سبيل لعاتب عليهم، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في البكَّائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال «البيضاوي»: هم البَكَّاءُون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك، فقال عليه السلام: لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون[4] ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم، ولم يكن عند

(١) «البيضاوي» ٢٣٠.
(٢) (ش): ثَبَّطه عن سَعْيه: عوَّقه عنه وبطَّأه، شغله ومنعه عن المُضيّ فيه.
(٣) «التسهيل» ٢/ ٨٣.
(٤) «البيضاوي» ٢٣٠. (ش): ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

رسول الله ما يحملهم عليه ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ أي إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يَعْلَمُ .. عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ بين (يعلم وعلام) جناس الاشتقاق.

٢ - ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ التنوين في عذابٌ للتهويل والتفخيم.

٣ - ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية.

٤ - ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة.

٥ - ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الخوالف: النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت[١].

٦ - ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألوسي[٢].

فَائِدَة: قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ لفظ السبعين جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب:

لَأُصَبِّحَنَّ الْعَاصَ وَابْنَ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي[٣]

فذكرها ليس لتحديد العدد، وإنما هو المبالغة جرْياً على أساليب العرب[٤].

تنبيه: إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له، والكافر ليس بأهل لذلك.

لطيفَة: «اشتهر» حذيفة بن اليمان بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ: إني مسرٌ إليك سرًّا فلا تذكره لأحد، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، لرهط ذوي عدد من المنافقين، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول: أسألك باللهِ هل عدَّني رسول الله من المنافقين»[٥].

---

(١) تلخيص البيان للشريف الرضى ص ١٤٨.

(٢) «روح المعاني» ١٠/ ١٥٩.

(٣) (ش): عقَد ناصيتَه: غضب وتهيأ للشرّ. والمقصود بهذا البيت معاوية بن أبي سفيان، والبيت رواه ابن جرير «الطبري» في «تاريخه» بإسناد ضعيف في قصة طويلة في الفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية ب، وكم من قصص مكذوبة تسيء إلى الصحابة الكرام تذكرها كتب التاريخ بلا تثبُّت.

(٤) «الكشاف» ٢/ ٢٩٥.

(٥) (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: دُعِيَ عُمَرُ، لِجِنَازَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يُرِيدُهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،=

قال الله تعالى:

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ
رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ
أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم
بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ
لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ
التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ
لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا
وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ
فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

= فَإِنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ، فَقَالَ: «نَشَدْتُكَ اللهَ أَنَا مِنْهُمْ» ، قَالَ: «لَا وَلَا أُبَرِّئُ أَحَدًا بَعْدَكَ» (رواه البزار بإسناد صحيح).
عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَائِرٌ إِلَى تَبُوكَ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ لِيُوحَى إِلَيْهِ، وَأَنَاخَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَنَهَضَتِ النَّاقَةُ تَجُرُّ زِمَامَهَا مُنْطَلِقَةً، فَتَلَقَّاهَا حُذَيْفَةُ فَأَخَذَ بِزِمَامِهَا يَقُودُهَا حَتَّى أَنَاخَهَا وَقَعَدَ عِنْدَهَا، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ فَأَقْبَلَ إِلَى نَاقَتِهِ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا لَا تُحَدِّثَنَّ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا، إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ»، رَهْطٍ ذَوِي عَدَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، قَالَ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّنْ يَظُنُّ عُمَرُ أَنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ الرَّهْطِ أَخَذَ بِيَدِ حُذَيْفَةَ فَقَادَهُ، فَإِنْ مَشَى مَعَهُ صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِنِ انْتَزَعَ مِنْ يَدِهِ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ (رواه البيهقي في «السنن الكبرى» بإسناد ضعيف.

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة، وقد ذكر تعالى من مكايد المنافقين «مسجد الضرار» الذي بنوه ليكون وكراً للتآمر على الإسلام والمسلمين، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه، لأنه لم يُشَيَّد على أساس من التقوى، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق، ولتفريق وحدة المسلمين، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار.

اللغَة: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ رجعتم ﴿رِجْسٌ﴾ الرجس: الشيء الخبيث المستقذر، وقد يطلق على النجس ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ قال الجوهري: المأوى كل مكان يأوى إليه ليلاً ونهاراً ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة: يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ، سواء كان من العرب أو من مواليهم، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب، ومن نزل البادية فهم أعراب[1] ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أولى وأحق ﴿مَغْرَمًا﴾ المغرم: الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء[2] ﴿مَرَدُوا۟﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها، وغصن أمرد لا ورق عليه، وغلام أمرد لا لحية له ﴿مُرْجَوْنَ﴾ الإرجاء: التأخير يقال: ارجأته، أي: أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخروا العمل[3] ﴿ضِرَارًا﴾ الضرار: محاولة الضر وفي الحديث «**لاَ ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ**»[4] ﴿وَإِرْصَادًا﴾ الإرصاد: الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددته مرتقباً له به ﴿شَفَا﴾ الشفا: الحَرْف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جُرُفٍ﴾ : ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هَارٍ﴾ ساقط يقال: تهور البناء إذا سقط وأصله هائر.

سَبَبُ النّزول: «روي أن أبا عامر الراهب[5] قد تنصر في الجاهلية وترهب، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهبت رياسته وقال: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم - وسماه النبي ﷺ

---

(١) «الرازي» ١٦/ ١٦٥.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٢٣٤.

(٣) (ش): المرجئة يخالفون أهل السنة والجماعة في أصل من أصول العقيدة، حيث يقول أهل السنة :إن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية .وأهل الإرجاء يخالفون في ذلك وغيره، فالإيمان عندهم هو التصديق والقول فقط، ولا يزيد ولا ينقص، ولا دخل للطاعة والمعصية في مسمى الإيمان.

(٤) رواه الدارقطني. (ش): ورواه ابن ماجه، وصححه الألباني.

(٥) هو والد حنظلة الذي غسلته الملائكة.

أبا عامر الفاسق - فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجدًا فإني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأُخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا بنينا مسجداً لذي العِلة، والحاجة، والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به، فدعا ﷺ بعض الصحابة وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم وأهله واحرقوه، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله، وفيه نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا ...﴾[1] الآية».

التفسير: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما فيه من ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي وسيرى اللهُ ورسولهُ عملكم فيما بعد، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية، ولا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ واجتناب، وخلُّوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس: يريد ترك الكلام والسلام[2] ثم ذكر تعالى العلة فقال: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ﴾ أي لأنهم كالقذر لخُبْث باطِنهم ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال «أبو السعود»: ووضع

---

(١) «أسباب النزول» ١٤٩. (ش): قال الألباني -رحمه الله-: «ضعيف رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جَابِرِ بْن عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠- ٢٢١).

(٢) «الرازي» ١٦/ ١٦٤.

الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة[١] ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الأعراب - أهل البدو - أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، لجفائهم وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في «البحر»: وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب، فقد نشئوا كما شاءوا، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة[٢] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقه حكيم في صنعه ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجو له ثواباً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بأفعالهم ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي ومن الأعراب من يصدِّق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ (ألا) أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة[٤] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان أي رَضِيَ اللهُ عَنْهم وأرضاهم، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال «الطبري»: رَضِيَ اللهُ عَنْهم لطاعتهم وإجابتهم نبيه، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والإيمان ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا

---

(١) «أبو السعود».

(٢) «البحر» المحيط.

(٣) (ش): فالجنةُ أثرٌ من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٤) روى عن الشعبي أنهم الذي، بايعوا بيعة الرضوان. وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين. وما ذكرناه أنهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هو ما رجحه «الطبري» واختاره الفخر «الرازي».

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في «البحر»: لما بيّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين، بيّن حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الثناءين فهناك قال ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهناك قال ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهنا ختم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهناك ختم ﴿ذلك الفوز العظيم﴾[1] ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي لَجُّوا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس: مرنوا عليه وثبتوا[2] منهم ابن سلول، والجلاس، وأبو عامر الراهب[3] ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار، الذي أعده الله للكفار والفجار ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال «الرازي»[4]: هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيئ وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي لعل الله يتوب عليهم قال «الطبري»: و«عسى» من الله واجب، ومعناه: سيتوب الله عليهم، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصَفْتُ[5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ذو عفوٍ لمن تاب، عظيم الرحمة لمن أناب ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس: ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ رحمة لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لقولهم عليهم بنيَّاتهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ الاستفهام للتقرير أي

---

(١) «البحر» ٥/ ٩٢.

(٢) (ش): لجَّ في الأمر: تمادَى فيه معاندًا، لازمه وأبى أن ينصرف عنه. مرنوا عليه: أي تعوَّدوا عليه ومهروا فيه.

(٣) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٤٩١.

(٤) «الرازي» ١٦/ ١٧٤.

(٥) «الطبري» ١١/ ١٢.

ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي يتقبلها ممن أخلص النية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة لقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣] ﴿وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي وستردُّون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي وآخرون من المتخلفين مُؤَخَّرُون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس: هم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار، وكانوا من أصحاب بدر، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم، فصاروا مرجئين لأمره تعالى[1] إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم، فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إما أن يعذبهم إن لم يتوبوا، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر، وسموه مسجداً مُضَارَّةً للمؤمنين[2]، وقد اشتهر باسم «مسجد الضرار» ﴿وَكُفۡرٗا﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتَلْتُك معهم، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال «الطبري» في رواية الضحاك: هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون: إذا رجع أبو عامر صلى فيه، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه[3] ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي ولَيُقْسِمُنَّ ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان، من الرفق بالمسكين، والتوسعة على المصلين ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ أي لا تصلِّ فيه يا محمد أبداً لأنه لم يُبْنَ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق

(١) «أبو السعود» ٢/ ٢٩٥.
(٢) انظر سبب النزول.
(٣) «الطبري» ١١/ ٢٥.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي من أول يوم ابتدئ في بنائه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء - وهم الأنصار - يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي[1] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى: هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلبٍ لمرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط؟ ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد، ولا يهديهم سبيل الرشاد، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص، والإيمان، وعمل أهل النفاق والضلال، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجد الضرار شك ونفاقٌ، وغيظ وارتياب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم[2] ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ بين الكلمتين طباق.

٢ - ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم.

٣ - ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ فيه مجاز مرسل أي يُدخلهم في جنته التي هي محل

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءَ ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ قَالَ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَةُ. (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني).

(٢) (ش): قال الألباني: «ضعيف رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بدون إسناد. لكن أخرج الحاكم عن جَابِر بْن عَبْدِاللهِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنهما، قال: «رَأَيْتُ الدُّخَانَ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ حِينَ انْهَارَ» وصححه ووافقه الذهبي، فلعل المسجد انهار بأمر الله دون حرق، والله أعلم. (انظر: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، للدكتور محمد بن عبد الله العوشن (ص ٢٢٠- ٢٢١).

الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل[١].

٤ - ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ بين ﴿صَٰلِحًا .. سَيِّئًا﴾ طباق.

٥ - ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

٦ - ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية.

٧ - ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس[٢].

تنبيه: كلمة «عسى» من الله واجب قال الإمام «الرازي»: وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة «عسى» أو «لعل» تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمه بشيء، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإتكال والإهمال[٣].

لطيفة: روى الأعمش أن أعرابيًّا جلس إلى «زيد بن صوحان» وهو يحدث أصحابه وكانت يده أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني! قال زيد: ما يريبك من يدي إنها الشمال، فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد: صدق الله ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ...﴾ الآية، معنى تريبني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي[٤].

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ

---

(١) (ش): فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين سبحانه وتعالى.

(٢) انظر ما كتبه الشريف الرضي في «تلخيص البيان» حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩، ففيه روائع البيان.

(٣) «الرازاي» ١٦/ ١٧٦.

(٤) «محاسن التأويل» ٨/ ٣٢٣٩.

ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ
ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن
لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن
رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟
كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ
يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى أحوال المنافقين، المتخلفين عن الجهاد، المثبطين عنه، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله. . ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى، ببعثة السراج المنير، النبي العربي، الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

اللغة: ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع، يقال: تأوه الرجل تأوهاً إذا توجع

قال الشاعر:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ تَأَوَّهُ[1] آهَةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ[2]

﴿حَلِيمٌ﴾ الحليم: الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾ الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك «غزوة العسرة» لما فيها من المشقة والشدة ﴿يَزِيغُ﴾ الزيغ: الميل: يقال زاغ قلبه إذا مال عن الهدى والإيمان ﴿ظَمَأٌ﴾ الظمأ: شدة العطش ﴿نَصَبٌ﴾ النصب: الإعياء والتعب ﴿مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿يَنَالُونَ﴾ يصيبون، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غِلْظَةً﴾ شدة وقوة وحمية ﴿عَزِيزٌ﴾ صعب وشاق ﴿عَنِتُّمْ﴾ العنت: الشدة والمشقة.

سَبَبُ النّزول: أ - «لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة - وكانوا سبعين رجلاً - قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل» فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ...﴾[3] الآية[4].

---

(١) (ش): تَأَوَّهُ: أصلها تتأوَّهُ ومعناها تتألم، آهة الرجل: مثل تألم الرجل. عنَى بذلك ناقته، تَحِنُّ إلى ديارها وأوطانها. فعندما يذهب الشاعر إلي ناقته لتجهيزها للسفر يسمعها وهي تتألم مثلما يتألم الرجل الحزين.

(٢) «البحر» ٥/ ٨٨.

(٣) «زاد المسير» ٣/ ٥٠٤.

(٤) (ش): سبب النزول ضعيف، رواه ابن جرير في «جامع البيان». أما قصة المبايعة فثابتة. فَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَبِثَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ فِي الْمَوْسِمِ وَبِمَجَنَّةٍ وَبِعُكَاظٍ، وَبِمَنَازِلِهِمْ بِمِنًى يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي، مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟». فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَيُؤْوِيهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ يَرْحَلُ مِنْ مُضَرَ، أَوْ مِنَ الْيَمَنِ، إِلَى ذِي رَحِمِهِ، فَيَأْتِيهِ قَوْمُهُ، فَيَقُولُونَ: «احْذَرْ غُلَامَ قُرَيْشٍ لَا يَفْتِنُكَ»، وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ. حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ، فَيَأْتِيهِ الرَّجُلُ فَيُؤْمِنُ بِهِ، فَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلَامِهِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ يَثْرِبَ إِلَّا فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ بَعَثَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأْتَمَرْنَا، وَاجْتَمَعْنَا سَبْعُونَ رَجُلًا مِنَّا، فَقُلْنَا: حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ، وَيَخَافُ. فَرَحَلْنَا حَتَّى قَدِمْنَا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ، فَوَاعَدْنَاهُ شِعْبَ الْعَقَبَةِ، فَقَالَ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ: «يَا ابنَ أَخِي، إِنِّي لَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ جَاءُوكَ؟ إِنِّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ»، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهُ مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْعَبَّاسُ فِي وُجُوهِنَا، قَالَ: «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ»، فَقُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ؟» قَالَ: «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ الْجَنَّةُ». فَقُمْنَا نُبَايِعُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ، فَقَالَ: «رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ، وَعَلَى قَتْلِ خِيَارِكُمْ، وَعَلَى مُفَارَقَةِ =

ب - لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**أَيْ عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فقال أبو جهل وابن أُمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول «لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ...﴾ » ونزلت ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] [القصص: ٥٦].

التفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين[2]، مَثَّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن: بايعهم فأَغْلَى لهم الثمنَ[3] وانظروا إلى كرم الله، أَنْفُسًا هو خلقها، وأموالًا هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم: ناهيك عن[4] بيع البائعُ فيه المؤمنُ، والمشتري فيه ربُّ العزة والثمنُ فيه الجنةُ، والصَكُّ فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة «التوراة، والإنجيل، والقرآن» ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري: لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق، فكيف بالغني

= الْعَرَبِ كَافَّةً، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ، فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ». قَالُوا: «يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ، وَلَا نَسْتَقِيلُهَا، فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ» (رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَقال ابن كثير: هَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ). «هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا أَعْرِفُهُمْ، هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ»: هَذَا يَدُلُّ عَلَى غَلَبَةِ الشَّبَابِ عَلَى الْوَفْدِ.(أَمِطْ): أَبْعِدْ. (لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ): أَيْ لَا نَتْرُكهَا. (وَلَا نَسْتَقِيلُهَا): لَا نَطْلُبُ فَسْخَهَا وَالرُّجُوعَ فِيهَا. والِاسْتِقَالَةُ: طَلَبُ الْإِقَالَةِ، وَالْإِقَالَةِ هِيَ رَفْعُ الْعَقْدِ بَعْدَ وُقُوعِهِ. (بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ): يَعْنِي الْمَوَاثِيق الَّتِي أَخَذَهَا الْعَبَّاسُ عَلَيْهِمْ بِالْوَفَاءِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) (ش): هذا خطأ لأنه لا مانع مِن حَمْله على الحقيقة، لأن الأصل في الكلام لاسيما كلام الله الحقيقة لا المجاز، والشراء في اللغة استبدال شيء بشيء، وهو حاصِلٌ هنا.

(٣) «الطبري» ١١/ ٣٥، و«الرازي» ١٦/ ١٩٩.

(٤) (ش): ناهيك عن/ ناهيك بـ: كَافِيكَ. صَكَّ: سَنَدٌ أو وثيقة اعتراف بالمال المقبوض أو بالمال المستحقّ للغير.

الذي لا يجوز عليه القبيح؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ[١] ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرابح وافرحوا به غاية الفرح ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ كلا مستأنف قال الزجاج: مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥] والمعنى التائبون عن المعاصي، العابدون أي المخلصون في العبادة، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعظة والاعتبار[٢] ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي المصلون ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي الداعون إلى الله، يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي المحافظون على فرائض الله، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال «الطبري»: أي المؤدون فرائض الله، المنتهون إلى أمره ونهيه[٣] ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بشرهم بجنات النعيم، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر، بل لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ أي ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر، والآية نزلت في أبي طالب[٤] ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي إلا من أجل وعدٍ تقدم له بقوله ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧] وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾ أي فلما تبين لإبراهيم أن أباه مُصِرٌّ على الكفر ومستمر على الكفر، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حَلِيمٞ﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ

---

(١) «الكشاف» ٢/ ٣١٤.

(٢) فسر بعضهم «السائحون» بأنهم الصائمون، وقال عطاء: هم الغزاة، وقال ابن زيد: هم المهاجرون، وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر «الرازي»، وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والله أعلم.

(٣) «الطبري» ١١/ ٣٩.

(٤) انظر سبب النزول.

لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان: ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يُقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه، وهو الوعد الذي كان وعده به، فكان يرجو إيمانه فلما تبيّن له من جهة الوحي أنه عدو لله، وأنه يموت كافراً، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره[1] ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم[2] أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الإضلال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له سلطان السماوات والأرض ومُلْكُهما، وكُلُّ مَن فيهما عبيدُه ومماليكُه ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجئون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي: لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم، بيّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود، ومتولي أمره، والغالب عليه، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى، ليتوجهوا إليه بكُلِّيَّتِهم، مُتبرِّئين عما سواه، غير قاصدين إلا إياه[3] ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك، حيث تباطأ بعضهم، وتثاقل عن الجهاد آخرون، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم، وصدّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم، وتنويهاً لشأنهم، وبعثاً للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، حتى النبي والمهاجرون والأنصار[4] ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر، وقلة الزاد، والضيق الشديد روى «الطبري» عن عمر رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير فيعصر فرثه فيشربه، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: تحب ذلك؟ قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملأوا

(١) «البحر» المحيط ٥/ ١٠٥.
(٢) التسهيل ٢/ ٨٦. (ش): ذكره ابن جزي في «التسهيل» لعلوم التنزيل» بدون إسناد.
(٣) «روح المعاني» ١١/ ٣٩.
(٤) انظر «الكشاف» ٢/ ٣١٦.

ما معهم، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[١] ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو، وهم «كعب، وهلال، ومرارة»[٢] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهَمِّ، بحيث لا يَسَعُها أُنْسٌ ولا سرور، وذلك بسبب «أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه، وهَجَرَتْهم نساؤُهم وأهلُوهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم» ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المبالِغُ في قبول التوبة وإن كثُرتْ الجنايات وعَظُمَتْ، المتفضلُ على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي راقِبُوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم، وكونوا مع أهل الصدق واليقين، الذين صدقوا في الدنيا نية وقولاً وعملاً ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام، بل عليهم أن يُفْدوه بالمُهَج والأرواح، وأن يكابِدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزمخشري: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسُه، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه، لا أن يَضَنُّوا[٣] بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، وتهييج لمتابعته عليه السلام[٤] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ أي ولا تعب ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾ أي ولا مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طرق الجهاد ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة

(١) «الطبري» ١١/ ٥٥. (ش): قال الهيثمي: «رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال البزار ثقات».
(٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي «الطبري» ١١/ ٥٨. (ش): هم كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ومُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِى، وَهِلاَل بْن أُمَيَّةَ الْوَاقِفِى رضي الله عنهم. والقصة رواها أيضًا مسلم في «صحيحه».
(٣) (ش): ضنَّ بالمَال وغيره: بَخِلَ به.
(٤) «الكشاف» ٢/ ٢/ ٣٢١.

الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي يُغْضِب الكفارَ وَطْؤُها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسرٍ أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي إلا كان ذلك قربة لهم عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ قال ابن عباس: تمرة فما فوقها ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي: على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاء أحسن، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء[1] ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو[2] بحيث تخلو منهم البلاد، روي عن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا: لا يتخلف منا أحد عن جيشٍ أو سرية أبداً، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية[3] ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي فإذا لم يكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهَلَّا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي: وكان الظاهر أن يقال ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ بدل ﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ و ﴿يَفْقَهُونَ﴾ بدل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم: الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم: اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار[4] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي قاتِلوا القريبين منكم وطَهِّروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتَقِلوا إلى غيرهم، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أي من سور القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء: أيكم زادته هذه إيماناً؟ على وجه الاستخفاف

(١) «روح المعاني» ١١/ ٤٧.
(٢) وقيل: المراد أن ينفروا لطلب العلم.
(٣) «الرازي» ١٦/ ٢٢٥.
(٤) «روح المعاني» ١١/ ٤٨.

بالقرآن كأنهم يقولون: أي عجب في هذا وأي دليل في هذا؟ يقول تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً[1] وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أوَلا يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي؟ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ أي وإذا أُنْزِلَت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف، فإنا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ جملة دُعائيَّة أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حمقى غافلون ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر، من جنسكم عربي قرشي، يُبلغكم رسالة الله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه عَنَتُكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس: سماه باسمين من أسمائه[2] ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل: يكفيني ربي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود سواه[3] ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي عليه اعتمَدتُ فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء، لكونه أعظم الأشياء؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ استعارة تبعية شبه بذلهم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها

---

(١) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٢) «زاد المسير» ٣/ ١٢٥.

(٣) (ش): الصواب أن يقال: أي لا معبود بحق سواه.

بالجنة بالبيع والشراء[١].

٢ - ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فيه جناس ناقص لاختلافهما في الشكل وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ يعني المصلين فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[٢].

٤ - ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم.

٥ - ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٦ - ﴿لِيُضِلَّ .. هَدَىٰهُمْ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يُحْيِۦ .. وَيُمِيتُ﴾ وكذلك ﴿ضَاقَتْ .. رَحُبَتْ﴾.

٧ - ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة.

٨ - ﴿يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿يَنَالُونَ .. نَيْلًا﴾.

٩ - ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ طباق.

١٠ - ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ قال في تلخيص البيان: السورة لا تزيد الأرجاس رجساً، ولا القلوب مرضاً، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب، ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمىً، حَسُنَ أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة.

تنبيه: «روي أن أبا خيثمة الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته، وأخذ سيفه ورمحه، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب، فقال: «كن أبا خيثمة» فكان ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له»[٣].

«تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): هذا خطأ لأنه لا مانعَ مِن حَمْله على الحقيقة، لأن الأصل في الكلام لاسيما كلام الله الحقيقة لا المجاز، والشراء في اللغة استبدال شيء بشيء، وهو حاصِلٌ هنا.

(٢) تلخيص البيان ١٥٢. (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٣) (ش): حديث (كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ) صحيح، وهو عند مسلم وأحمد، وهو جزء من حديث كعب بن مالك الطويل. أما قصة أبي خيثمة التي ذكرها المؤلف؛ فقد أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق بدون سند. ورواها الطبراني في «الكبير» بسند فيه يعقوب بن محمد الزهري، وهو ضعيف.

سُورَةُ يُونُسَ ١٠ ١٠٩

مكية وآياتها تسع ومائة

بين يدي السورة

سورة يونس من السور المكية التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية «الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالكتب، والرسل، والبعث والجزاء» وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية، وبوجه أخص إلى «القرآن العظيم» خاتمة الكتب المنزلة، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بعث الله إليها رسولًا، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: ٢]؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة «الألوهية» و«العبودية» وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، وعرَّفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه، وأن يُسلموا وجوههم إليه، فهو وحده الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر الحكيم، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [يونس: ٣] الآيات.

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة، الدالة على صدق النبي الأمي، وانه يحمل برهانه في تفرده المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة وأمراء البيان، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود:١٣].

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته الدالة على التدبير الحكيم، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ... ﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحدانية الله جل وعلا، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية.

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون الجبار، وذكرت قصة نبي الله «يونس» -الذي سميت السورة باسمه- وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين، ونصرة المؤمنين.

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، والصبر على ما

يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

التسمية: سميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائص التي خص الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم.

قال الله تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ
ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ
وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ
لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي
ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا
يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ
وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم
بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ
مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ
وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآئِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ
عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ
مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعۡبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ
بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ

أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

اللغة: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ قال الليث: القدم السابقة قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ لَهُمْ قَدَمٌ[1] مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ[2]

وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش: سابقة إخلاص ﴿يُدَبِّرُ﴾ التدبير القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ العدل ﴿حَمِيمٍ﴾ الحميم: الماء الحار الذي سخن بالنار حتى انتهى حره ﴿يُفَصِّلُ﴾ التفصيل: التبيين والتوضيح ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان العلو والارتفاع ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ...﴾[3] الآية.

التفسير: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه[4] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المُحكَم المبين الذي لا يدخله شك، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤنا إلى رجل منهم هو محمد عليه السلام؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي أوحينا إليه بأن خوف الكفار عذاب النار ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي وأنْ بَشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ومع ضوح صدق الرسول ﷺ قال المشركون: إنَّ محمداً لساحرٌ ظاهر السحر، مبطلٌ فيما يدَّعيه قال «البيضاوي»: وفيه اعترافٌ من حيث لا يشعرون بأنَّ ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر[5] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى

---

(١) (ش): القدم السابقة: ما تقدموا فيه غيرهم. الذُّؤابة: أعْلَى كلِّ شيء، أو قمَّته وناصيتُه.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٧/ ٧.

(٣) «القرطبي» ٨/ ٣٠٦. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» والواحدي في ««أسباب النزول»».

(٤) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة.

(٥) «البيضاوي» ٢٣٥.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي إنَّ ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تُفْرِدوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، ولو شاء لخلقهنَّ في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ، ولا تشبيه، ولا تعطيل قال ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌ عن الله، فإن الله لا يُشْبِهه شيءٌ من خلقه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة، والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله، فقد سلك سبيل الهدى[1] وقال «أبو السعود»: استوى على العرش على الوجه الذي عناه، وهو صفة له سبحانه بلا كيف، مُنَزَّهـًا عن التمَكُّن والاستقرار[2]، وهذا بيانٌ لجلالة ملكه وسلطانه، بعد بيان عظمة شأنه[3] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي يدبّر أمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة قال ابن عباس: لا يشغله في تدبير خلقه أحد ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له في الشفاعة، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهم أن الأصنام تشفع لهم ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن هو ربكم وخالقكم لا ربَّ سواه، فوحّدوه بالعبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون؟ تعلمون أنه المتفرد بالخلق ثم تعبدون معه غيره ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعـًا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله لا يتبدّل، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي كما ابتدأ الخلق كذلك يعيده ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي ليجزي المؤمنين بالعدل، ويوفيهم أجورهم بالجزاء الأوفى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي لهم في جهنم شرابٌ من حيمم، بالغ النهاية في الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ

---

(١) «المختصر» ٢/ ٢٥، وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف من هذا الكتاب.

(٢) (ش): قول أبي السعود «منزَّهـًا عن التمكُّن والاستقرار» مخالفٌ لِما يثبته السلف من صفة العلو، ومخالفٌ لِما ذكره المؤلف نفسُه - في تفسير سورة الأعراف - من تفسير الاستواء بالعلوّ والاستقرار. فكلام أبي السعود مخالفٌ لعقيدة أهل السنة والجماعة، والواجب السكوت عما سكتت عنه النصوص وسكت عنه السلف؛ والسلف أثبتوا الحق ونفَوا الباطل، وتفسيرهم لآيات الصفات وأحاديثها على الوجه اللائق بالله تعالى أمر معلوم، بل إن عامة أهل السنة على إثبات «التمكن والاستقرار» الذي نزَّه أبو السعود اللهَ عنه، فإن جمعـًا من علماء أهل السنة فسروا الاستواء بالاستقرار والتمكن، وما أنكَرَ البقيةُ عليهم. جاء في كتاب «التمهيد» لابن عبدالبر (٧/ ١٣١): «الاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار، والتمكُّن فيه». [وانظر: «مجموع فتاوى ورسائل العثيمين» (١/ ٢٤٠)].

(٣) «أبو السعود» ٢/ ٣٠٧.

بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ أي ولهم عذاب موجع بسبب كفرهم وإشراكهم قال «البيضاوي»: والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة[1] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خُصَّت بالضياء، لأنه هو الذي له سطوعٌ ولَمعان قال «الطبري»: المعنى أضاء الشمس وأنار القمر[2] ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ أي قدَّر سيره في منازل وهي البروج[3] ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ أي لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة، وفائدة جليلة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يبيّن الآيات الكونيّة ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته قال «أبو السعود»: أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا[4] ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ أي في تعاقبهما يأتي الليل فيذهب النهار، ويأتي النهار فيذهب الليل ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي وما أوجد فيهما من أصناف المصنوعات ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جليلة، على وجود الصانع ووحدته، وكمال علمه وقدرته، لقوم يتقون الله ويخافون عذابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم، فقد أعْمَتْهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ أي وهم عن الأدلة المنبثّة في صحائف الأكوان غافلون، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي مثواهم ومقامهم النار ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وإجرامهم، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرَّتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي الحديث « **يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا**

---

(١) «البيضاوي» ٢٣٦.

(٢) «الطبري» ١١/ ٨٦.

(٣) (ش): المنازل للقمر والبروج للشمس، ومنازل القمر ثمان وعشرون والبروج اثنا عشر فقط.

(٤) «أبو السعود» ٢/ ٣١٠.

يُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[١] أي كلامهم في الجنة تسبيح الله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلامٌ عليكم كما تحيِّيهم بذلك الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمد لله ربّ العالمين ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب، اللهم أهلكْه، اللهم لا تبارك فيه قال «الطبري»: المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرَّة، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي لهلكوا وعُجِّل لهم الموت[٢] ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي فنترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في تمردهم وعتوهم يتردَّدون تَحَيُّراً والمعنى: نترك المجرمين ونُمْهِلُهم ونفيض عليهم النِّعم مع طغيانهم لتَلْزَمهم الحجة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضرُّ من مرضٍ أو فقرًا ونحو ذلك ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي دعانا في جميع الحالات: مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضر عنه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضرّ استمرَّ على عصيانه، ونسي ما كان فيه من الجَهْد والبلاء أو تناساه، وهو عتابٌ لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كما زُيّن لذلك الإنسان الدعاء عند الضرِّ والإعراضُ عند الرخاءِ، كذلك زُيّن للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر، ومتابعة الشهوات ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمَادَوا في الغَيِّ والضلال ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيئان: ظلمهم، وعدم إيمانهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء - يعني الإهلاك- نجزي كل مجرم، وهو وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لننظر أتعملون خيراً أم شرًا فنجازيكم على حسب عملكم قال «القرطبي»: والمعنى: يعاملكم معاملة المختَبِر

---

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) «الطبري» ١١/ ٩١، وقال بعض المفسرين: نزلت في كفار مكة حيث قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قال الزمخشري: يعني: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لَأُمِيتُوا وأُهلِكوا. اهـ. «الكشاف» ٢/ ٣٣٢.

(ش): سبب نزول الآية في كفار مكة حيث قالوا» لم أجده إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

إظهاراً للعدل[١] وقال في «التسهيل»: معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة[٢] والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبيَّن في الوجود ما علمه تعالى أزلاً ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين، حال كونها واضحات لا لَبْس فيها ولا إشكال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أي ائت يا محمد بكتابٍ آخر غير هذا القرآن، ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، ومكان سب آلهتنا مدحهم، ومكان الحرام حلالًا، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس: نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا: يا محمد ائتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[٣] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيرّ أو أبدّل شيئًا من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي لا أتّبع إلا ما يوحيه إليَّ ربي، فأنا عبد مأمور، ورسولٌ مبلِّغ، أبلغكم رسالة الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أخشى إن خالفْتُ أمرَه، وبدَّلْتُ وحْيَه، عذابَ يوم شديد الهَوْل هو يوم القيامة، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد: لو شاء الله ما تلَوْتُ هذا القرآن عليكم، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلَمكم به على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي فقد مكثتُ بين أظهركم زمنًا طويلاً، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنَّ مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله؟ قال الإمام الفخر: إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله، وأنه ما طالع كتابًا، ولا تتلمذ لأستاذ، ولا تعلَّم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم، المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين، وعجز عن معارضته العلماء، والفصحاء، والبلغاء، وكلُّ من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل[٤] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب، والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريف ﷺ

(١) «القرطبي» ٨/ ٣١٨.
(٢) «التسهيل» ٢/ ٩٠.
(٣) «البحر» ٥/ ١٣١.
(٤) «الرازي» ١٧/ ٥٧.

حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذّب الرسل الكرام ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بيانٌ لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفع أو دفع ضر ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أتخبرون الله تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ كائنٍ في السماوات أو الأرض لا يعلمه جلَّ وعلا، وهو علاّم الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزّه الله وتقدَّس عما يقول الظالمون، وينسبه إليه المشركون ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين[1] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لعُجِّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين[2] ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلاّ أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم أمر الغيب لله وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مُبلِّغ ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المُحْكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض.

٢ - ﴿أَنذِرِ .. وَبَشِّرِ﴾ بينهما طباقٌ.

٣ - ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة، والعبارةُ غايةٌ في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها.

٤ - ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباقٌ.

٥ - ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فيه التفاتٌ مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله.

---

(١) «المختصر» ٢/ ١٨٨.

(٢) (ش): أي: ولولا كلمةٌ سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضِيَ بينهم: بأن يُهْلكَ أهلُ الباطل منهم، ويُنَجِّي أهلُ الحق.

٦ - ﴿ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل، وبين الشر والخير طباقٌ.

٧ - ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبّه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم للنظر في أعمالهم، واستعير الاسم الدال على المشَّبه به للمشبَّه على سبيل التمثيل والتقريب، ولله المثل الأعلى.

٨ - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

فَائِدَة: قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ إن هذه الآية أصلٌ في علم المواقيت، والحساب، والتاريخ، ومنازل القمر.

لطيفَة: قال الحافظ ابن كثير: من قال مقالة صادقًا أو كاذبًا فلا بدَّ أن يُنْصَب عليه من الأدلة على برِّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحِنْدِس[1] الظلماء، قال عبد الله بن سلام: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل، فلما رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلو الجنة بسلام**»[2] فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل. قال حسان:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

قال الله تعالى:

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ

---

(١) (ش): حِنْدِس: ظُلْمَة شديدة.

(٢) (ش): رواه الترمذي، وصححه الألباني.

ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكرُ، والجحودُ، والعِنَاد، فإن أصابتهم الشدة تضرّعوا، وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية الله ربّ العالمين.

اللغة: ﴿عَاصِفٌ﴾ العاصف: الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار، قال الفراء: يقال: عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر:

إِنَّ الرِّيَاحَ إِذَا مَا أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ ... عَيْدَانَ نَجْدٍ وَلَا يَعْبَأْنَ بِالرَّتَمِ (١)

﴿ٱلْمَوْجُ﴾ ما ارتفع من الماء فوق «البحر»، سُمّي موجاً لاضطرابه ﴿زُخْرُفَهَا﴾ الزخرف: كمالُ حسنِ الشيء ونضارتهُ، سُمّي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿تَغْنَ﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعَمره ﴿يَرْهَقُ﴾ يغشى ويعلو يقال: رهقه الذل، أي: غَشِيَه ﴿قَتَرٌ﴾ القَتر والقترة: الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١] أي تعلوها غَبَرة جهنم، وقيل: القَتَر الغبارُ وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق:

مُتَوَّجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتْبَعُهُ ... مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرَّايَاتِ وَالْقَتَرَا (٢)

---

(١) «البحر» ٥/ ١٢٠. (ش): (أَعْصَفَتْ الريح): عصفت: اشتد هبوبُها. (قَصَفَ): كَسَر. (عَيْدان): جَمْع عَيْدانة، وهي النّخلةُ الطويلة والشجرة الصُّلْبة القديمة. والرَّتَم: نباتٌ من أدقِّ الشجر،كأنه من دِقَّتِه شُبِّه بالخَيْط.

(٢) «القرطبي» ٨/ ٣٣١.

﴿فَزَيَّلْنَا﴾ فرَّقنا وميّزنا ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل.

التفسير: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المراد بالناس كفار مكة رُوِي أن الله سلّط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد[1] والمعنى: وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة، وخصباً بعد جدب أصابهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاءٌ وتكذيب ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أعْجَلُ عقوبةً على جزاء مكرهم[2] ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي إنَّ الملائكة الحفظة يكتبون مكركم ويسجّلون إجرامكم، وفيه تنبيهٌ على أن ما دبَّروه غير خافٍ على الحَفَظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب، وفي «البحر» على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي حتى إذا كنتم في «البحر» على ظهور هذه السفن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فيه التفات أي وجَرَيْن بهم[3] بالريح الليِّنة الطرية التي تُسَيِّر السفن ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي وفجأةً جاءتها الريح الشديدة العاصفة المدمّرة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون، قال «القرطبي»: وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً، لانقطاع الأسباب، ورجوعه إلى ربّ الأرباب[4] ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك، والعاملين

---

(١) (ش): لم أجِدْه إلا في بعض كتب التفسير بدون إسناد.

(٢) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سماه مكرًا مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب.

(٣) (ش): جَرَيْن بهم: جَرَتْ بِهِمْ السفن.

(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٢٥. (ش): «رب الأرباب»، لا تعني الاعتراف أوالإقرار بربوبية غير الله على الحقيقة. بل هو إبطال لربوبية ما سوى الله، فإذا كان سبحانه هو الرب الموجود والمتصرف بهذه الأرباب، فلا معنى لاتخاذها أو عبادتها. إذ ربوبيتها قاصرة محدودة التأثير حتى في نظر أصحابها وعابديها، وهي عند الله فاسدة باطلة، وحجة عابديها عنده داحضة. وعلى تقدير آخر إذا كان المقصود بالأرباب: أصحاب الشأن ومُلّاك العبيد ونحوهم فكذلك أيضاً، لأن ربوبيتهم صورية، أخذت من كلمة الرب معناها اللغوي، وهم وما يملكون عبيدٌ الله خاضعون لسلطانه. فإن الدار لها رب، والأرض لها رب، والنخل له رب، والأنعام لها رب يعني (مالك)، فهو رب هذه الأرباب يعني رب هذه المخلوقات التي لها أتباع، فالله هو رب الجميع وإن سُمُّوا أربابًا هم لكنهم مملوكون له سبحانه، هم عبيده، هو رب الأرباب يعني رب المخلوقات جميعًا، مربوبها وربها، عبيدها وأحرارها، جمادها وعاقلها، إلى غير ذلك.

بطاعتك ومرضاتك قال في «البحر»: ومعنى الإخلاص[١] إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن: مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري[٢] ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي فلما خلّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس: يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي[٣] قال تعالى ردا عليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي وبالُ البغي عليكم، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها، وفي هذا وعيد وتهديد. والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجَحُود[٤]، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة، فإذا نجّاه الله من الضيق، وكشف عنه الكرب، رجع إلى الكفر والعصيان، وتمادى في الشرِّ والطغيان. ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها فقال ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس: اختلط فنبت بالماء كلُّ لون[٥] ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول، والأنعامُ من الكلأ والتبن والشعير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي أخذت حُسْنَها وبَهجَتَها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار، وهو تمثيلٌ بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها، محصّلون لثمرتها وغلّتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إمّا ليلاً وإمّا نهاراً ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبيّن الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي: وتخصيصُهم بالذكر لأنهم المنتفعون[٦] ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة

---

(١) (ش): في قوله تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.
(٢) «البحر» ٥/ ١٣٩.
(٣) نفس المرجع السابق ٥/ ١٤٠.
(٤) (ش): جحَد الحقَّ/ جحَد بالحقِّ: أنكَرَه مع علمِه به.
(٥) «الطبري» ١١/ ١٠٢.
(٦) «روح المعاني» ١١/ ١٠٢.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم[1] ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي هوانٌ وصغار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئةِ بمثلها لا يزادون على ذلك، فالحسنات مضاعفة بفضل الله، والسيئات جزاؤها بالمثل عدلاً منه تعالى[2] ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي نجمع الفريقين للحساب: المؤمنين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا الله ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤمنين كقوله ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله[3] قال مجاهد: يُنطِق الله الأوثان فتقول: ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدون وما أمرناكم بعبادتنا[4] كقوله ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة: حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل،

---

(١) ورد هذا في حديث صحيح أخرجه مسلم. (ش): قَالَ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) قال في الجوهرة: فالسيئات عنده بالمثل: والحسنات ضوعفت بالفضل.

(٣) (ش): ليس هذا خاصًّا بالأصنام، بل كل ما عُبد من دون الله من الملائكة والأولياء وغيرهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٣٣.

لأنا كنا جماداً لا روح فينا ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك الوقت تُختبر كلُّ نفسٍ بما قدمت من خير أو شر، وتنال جزاء ما عملت ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي ردّوا إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه م أن الأوثان تشفع لهم، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئاً ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في هذه الآيات الأدلةُ على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من ينزل لكم الغيث والقطر، ويخرج لكم الزروع والثمار؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم، التي تسمعون وتبصرون بها؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أراد الله أن يسلبكموها؟ كقوله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] الآية ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة، والنبات من الأرض، والمؤمن من الكافر؟ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي ومن يدبّر أمر الخلائق، ويصرِّف شئون الكائنات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي فسَيُقِرُّون بأن فاعل ذلك كلِّه هو الله ربُّ العالمين، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقْمته بإشراككم وعبادتكم غير الله؟ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق، الثابت ربوبيتُه ووحدانيتُه بالبراهين القاطعة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهام إنكاري أي ليس بعد الحق إلا الضلال، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت؟ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحُكْمُه السابق ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذَّبوا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لأنهم لا يصدّقون بوحدانية الله ورسالة نبيّه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع: هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه، ثم يُعيدُه ويُحْيِيه؟ قال «الطبري»: ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك، وفيه الحجة القاطعة، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون، أُمر ﷺ بالجواب[1] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويبدأ ويُعيد، وليس أحدٌ من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل؟ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾

(١) هذا ما ذهب إليه «الطبري». وقال بعض المفسرين: المراد الرؤساء والمضِلّون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدي إلا أن يُرشدوا.

توبيخٌ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين: هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ أي فقل لهم: إن عجزتْ آلهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضالِّ، وإنارة السبيل، وبيان الحق ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ أي أفمن يرشد إلى الحق وهو سبحانه وتعالى أحقُّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها[1]؟ ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام وبين ربّ الأرباب، وتحكمون بهذا الباطل الصراح؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار، ثم بيّن تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النَّيِّرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان، بل مجرد أوهام باطلة، وخرافات فاسدة ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات، ظَنٌّ كاذب لا يغني من اليقين شيئـًا، فليس الظنُّ كاليقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي عالمٌ بما هم عليه من الكفر والتكذيب، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظنّ، وإعراضهم عن البرهان، ثم بيَّن تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصح ولا يعقل، ولا يستقيم لذي عقل سليم، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله، لأنه فوق طاقة البشر ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي ولكنّه جاء مصدقـًا لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي وفيه تفصيلُ وتبيينُ الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي لا شك في أنه تنزيل ربّ العالمين ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن مِن قِبَل نفسه؟ وهو استفهام معناه التقريع ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ مثل هذا القرآن، وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال «الطبري»: والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة، لأن محمداً لن يَعْدُو أن يكون بشراً مثلكم[2]، فإذا عجز الجميعُ من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثلِه، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز[3]، قال تعالى ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم، وساروا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه، والناس دائمـًا أعداءٌ لِمَا جهِلوا ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾

---

(١) «الطبري» ١١/ ١١٥.

(٢) (ش): لا يَعْدُو أن يكون كذا: ليس إلّا كَذا.

(٣) «الطبري» ١١/ ١١٨.

أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين.

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ تسمية عقوبة الله مكراً من باب «المشاكلة».

٢ - ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة.

٣ - ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ هذا من بديع الاستعارة شبّه الأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحليّ والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف.

٤ - ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ الأمر هاهنا كناية عن العذاب والدمار.

٥ - ﴿أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بينهما جناس الإشتقاق.

٦ - ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجمل.

٧ - ﴿يَبۡدَؤُاْ .. ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بينهما طباقٌ.

٨ - ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، ومثله ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾.

٩ - ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به.

قال الله تعالى:

وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ

وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ
أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

المنَاسَبَة: لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي، ذكر هنا أنَّ منهم من يصدِّق بأن القرآن كلام الرحمن، ولكنه يكابر ويعاند، ومنهم من لا يصدّق به أصلاً لفرط غباوته، وسخافة عقله، واختلال تمييزه ... ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة.

اللغَة: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ جمع أصمّ وهو الذي لا يسمع ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلاً ﴿تُفِيضُونَ﴾ يقال أفاض فلانٌ في الحديث إذا اندفع فيه ﴿يَعْزُبُ﴾ يخْفى ويغيب ﴿مِّثْقَالِ﴾ وزن ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ لله جل وعلا عن النقائص.

التفسير: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسلت به ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي وإن كذَّبك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقـًا كان أو باطلاً ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئـًا مما تقرؤه وتتلوه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن

تسمع من سلبه الله السمع ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون؟ قال ابن كثير: المعنى ومن هؤلاء من يسمعون كلامك الحسن، والقرآن النافع، ولكنْ ليس أمر هدايتهم إليك، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله[1] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة، ولكنّهم عُمْيٌ لا ينتفعون بما رأوا، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عُمْيَ القلوب؟ شبّههم بالعُمْي لتعاميهم عن الحق، قال «القرطبي»: والمراد تسلية النبي ﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال «الطبري»: وهذا إعلامٌ من الله بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها، فحقَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم[3] ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلاّ ساعة من النهار، لهول ما يرون من الأهوال ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا، وهو تعارف توبيخ وافتضاح، يقول الواحد للآخر: أنت أغويتني وأضللتني، وليس تعارف محبة ومودّة ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور، وما كانوا موفَّقين للخير في هذه الحياة ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة، ولا بدَّ من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومُعاقِبُهم على ما اقترفوا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسولٌ أُرسل لهدايتهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة قُضِي بينهم بالعدل قال ابن كثير: فكلُّ أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها، وحَفَظَتُهم من الملائكة شهود أيضاً[4] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يُعذبون بغير ذنب ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً؟ وهذا

(١) «المختصر» ٢/ ١٩٥.
(٢) «القرطبي» ٨/ ٣٤٦.
(٣) «الطبري» ١١/ ١٢٠.
(٤) «المختصر» ٢/ ١٩٦.

القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ أي لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضراً، ولا أجلب إليها نفعاً، وليس ذلك لي ولا لغيري ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب! ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ أي لكل أمة وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيُمْهَلُون ويُؤَخَّرُون، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ أي قل لأولئك المكذبين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نَفْعُكم فيه؟ ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً: ماذا تجني على نفسك ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعاينتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه، إذًا كان الإيمان لا ينفع حينذاك؛ قال «الطبري»: المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيه التصديق[1] ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ أي يقال لكم أيها المجرمون: الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي هل تُجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم؟ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون: أحق ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي لستم بمعجزين الله بهربٍ أو امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه[2] ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لو أن لكل نفسٍ كافرةٍ ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها، ومنافعها قاطبة ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ أي لَدَفَعَتْه فدية لها من عذاب الله ولكنْ هيهات أن يُقبل كما قال تعالى ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ [آل عمران:٩١] ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال الإمام الجلال: أي أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير[3] ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي قُضي بين الخلائق بالعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

(١) «الطبري» ١١/ ١٢٢.

(٢) وقيل المعنى: لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة، من «تفسير الطبري».

(٣) تفسير الجلالين ٢/ ١٩٢، وقال في «البحر»: وإخفاء الندامة هو من كونهم بُهِتُوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولا خَطَر ببالهم، ومعاينتهم ما أوْهَى قُوَاهُم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخًا، كما يعرض لمن يُقدّم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة، ويبقى مبهوتًا جامدًا.

أي لا يظلمون من أعمالهم شيئًا، ولا يُعاقبون إلا بجريرتهم ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ «أَلاَ» كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السماوات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيها لأحدٍ سواه، هو الخالق وهو المالك ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثر الناس لقصور عقولهم، واستيلاء الغفلة عليهم، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميتُ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خطابٌ لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظةٌ لكم من خالقكم ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب «الكشاف»: المعنى قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة، والتنبيه على التوحيد، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق، ورحمة لمن آمن به منكم[1] ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ قال ابن عباس: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام[2] والمعنى: ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله، من القرآن والإسلام، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي هو خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية، والنعيم الزائل، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ خطابٌ لكفار العرب والمعنى: أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي فحرَّمتم بعضه وحلَّلْتُم بعضه كالبَحِيرة، والسَّائبة، والميتة قال ابن عباس: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب، والحرث والأنعام[3] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني: أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم، فأنتم فيه ممتثلون لأمره، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال؟ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة؟ كلاَّ بل سيصليهم سعيراً، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون

(١) «الكشاف» ٢/ ٣٥٣.
(٢) «البحر» ٥/ ١٧١.
(٣) «المختصر» ٢/ ١٩٨.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمر من الأمور، ولا عمل من الأعمال ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئًا من القرآن ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي من وزن هباءة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجَّل في اللوح المحفوظ قال «الطبري»: والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم، فإنّا محصوها عليكم ومجازوكم بها[1] ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، ثم بيّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي الذين صدّقوا الله ورسوله[2]، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ وفي الحديث «إن لله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداءَ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فلعلَّنا نحبُّهم، قال: هم قومٌ تحابّوا في الله، على غير أرحام بيْنهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنورٌ، وإنهم لعلى منابرَ من نور، لا يخافون إذاً خاف الناسُ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الآية»[3] ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين، حيث تبشرهم الملائكة[4] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته،

---

(١) «الطبري» ١١/ ١٣٠.

(٢) (ش): تفسيره الإيمان بالتصديق تفسير قاصر ومخالف لما عليه أهل السنة من أن الإيمان تصديقٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح.

(٣) «الطبري» ١١/ ١٣٢. (ش): عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. رواه أبو داود وصححه الألباني.

(٤) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي: «الرؤيا الصالحة» التي يراها المؤمن أو تُرى له، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم، واختار «الطبري» أن البشارة تكون بالرؤيا الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت. (ش): عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: نُبِّئْتُ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قَالَ: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

وفي الآخرة بجنان النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هو الفوز الذي لا فوزَ وراءَه، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهَى[1] ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزُنْك ولا يؤلمْك يا محمد تكذيبُهم لك وقولهم: لسْتَ نبيًا مرسلاً، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي القوة الكاملة، والغلبة الشاملة، لله وحده، فهو ناصرك ومانعك ومعينك، وهو المنفرد بالعزّة يمنحُها أولياءَه، ويمنعُها أعداءَه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الجميع له سبحانه عبيداً وملكًا وخلقًا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعًا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما يتبعون إلا ظنًا باطلاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يحسدون ويكذبون، يظنون الأوهام حقائق ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ تنبيهٌ على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحةً لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل النهار مضيئًا تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي لَعَلاماتٍ ودلالاتٍ على وحدانيَّة الله، لقوم يسمعون سمع اعتبار، ثم نبّه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً[2] فقالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، كما قال كفار مكة: الملائكة بناتُ الله ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي تنزَّه الله وتقدّس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فالولد مُنتَفٍ عنه ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي الجميع خَلْقُه وملْكُه ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتفترون على الله وتكذبون بنسبه الشريك والولد؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي

(١) (ش): لا يُضاهَى: لا مثيلَ له.

(٢) يا له من جهل وحمق ينسبون إلى العلي الأعلى ما ينزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون!.

ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله.

البَلاَغَة: ١ - ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ .. مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بينهما طباقُ السلب.

٢ - ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ .. تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ الصُّمُ والعميُ مجازٌ عن الكافرين شبههم بالصُّم والعمي لتعاميهم عن الحق.

٣ - ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ وبين ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وبين ﴿يَسْتَقْدِمُونَ .. يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

٤ - ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ مجاز مرسل أطلق المحلَّ وأراد الحالَّ أي شفاءٌ للقلوب لأن الصدور محلُّ القلوب.

٥ - ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ بينهما طباق.

٦ - ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ قال في تلخيص البيان: هذه استعارة عجيبة، سمّى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا: ليلٌ أعمى وليلةٌ عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها[1].

٧ - ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام توبيخ وتقريع.

فَائِدَة: أمر تعالى رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ وفي سورة سبأ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي سورة التغابن ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن -الآية: ٧] ذكره ابن كثير.

تنبيه: كلمة «أرأيتَ» تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية، أو العلمية، وهذا أصل وَضْعِها ثم استعملت بمعنى «أخبرني» فيقولون: أرأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير: أأبصرت حالته العجيبة، أو أعرفت أمره العجيب؟ فأخبرني عنها، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩ - ١٠]؟ وهكذا.

قال الله تعالى:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا

(١) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص ١٥٦.

فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ
ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن
سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت
دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص: ١ - قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ - قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ - قصة يونس مع قومه، وفي كل قصة عبرةٌ لمن اعتبر، وذكرى لمن تدبر.

اللغَة: ﴿كَبُرَ﴾ قال الواحدي: كَبِرَ يكْبَرُ كِبَراً في السنِّ، وكبُر الأمرُ والشيءُ يكبُرُ كُبْراً وكُبَارةً إذا عَظُم[1] ﴿غُمَّةً﴾ مبهماً من قولهم غُمَّ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طَرفة:

لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[2]

﴿فَأَجْمِعُوٓا۟﴾ الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لَا تَنْفَعُ ... أَغْدُوَنْ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ[3]

﴿نَطْبَعُ﴾ نختم ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت: الصرف عن أمر وأصله اللَّيُّ يقال لفت عنقَه إذا لواها ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿لَعَالٍ﴾ عاتٍ متكبر ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

---

(١) «الرازي» ١٧/ ١٣٦.

(٢) (ش): (لَعَمْرُكَ): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُذكَر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكِّدات، وأسْلَمُ من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به.[انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون بن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].

السَّرْمَد: الدائم الذي لا ينقطع.

(٣) «القرطبي» ٨/ ٣٦٣.

المجاوزين الحد في الضلال والطغيان ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ الطمسُ: المسخ قال الزجاج: طَمْسُ الشيءِ إذهابه عن صورته ومنه عينٌ مطموسة.

التفسير: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوحٍ مع قومه المكذبين ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عَظُمَ وشَقَّ عليكم ﴿مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي طولُ مقامي ولبثي فيكم، وتخويفي إياكم بآيات ربكم، وعزمتم على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي على الله وحده اعتمدتُ، وبه وثقتُ فلا أُبَالِي بكم ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفـًا مشهوراً، ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي أَنْفِذُوا ما تريدونه[1] في أمْري ولا تُؤَخِّروني ساعة واحدة، قال «أبو السعود»: وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة، وثقةً بالله وبوعده مِن عصمته وكِلَاءته[2] ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾ أي فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري فليس لأني طلبت منكم أجرًا حتى تمتنعوا، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما أطلب ثوابـًا أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي من الموحدين لله تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي فأصَرُّوا واستَمَرُّوا على تكذيب نوح فنَجَّيْنَاه ومن معه من المؤمنين في السفينة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفـًا ممن غرق ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم؟ والغرض: تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحـًا ولوطـًا وإبراهيم وشعيبـًا ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل، ولم يزجرهم عقاب السابقين ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحدَّ في الكفر والتكذيب والعناد ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣] أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين، تعوّدوا الإجرام وارتكاب

(١) (ش): أَنْفَذ الأمرَ: قضاهُ وأجْراهُ وأتَمَّه.

(٢) «أبو السعود» ٢/ ٣٤١. (ش): كلأ اللهُ العبادَ: حفِظهم ورَعَاهم وحَرَسهم.

الذنوب العظام ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي فلما وضح لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم: هذا سحرٌ ظاهرٌ بَيِّنٌ أراد به موسى أن يسحرنا ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحرٌ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ أي أسحرٌ هذا الذي جئتكم به؟ ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ أي أجئتنا لتَصْرفنا وتَلْوِيَنَا عن دين الآباء والأجداد؟ ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والمُلْك والسلطان في أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ولسنا بمُصَدِّقين لكما فيما جئتُما به ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر، عليمٍ بفنون السحر ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأَتَوْه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون من حِبالِكم وعِصِيِّكم ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحرُ لا ما اتهمتموني به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ أي سيمْحَقُه وسيذهب به ويُظْهِر بطلانَه للناس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يصلح عمل مَن سعَى بالفساد ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي يثبت الله الحق ويقوّيه بحججه وبراهينه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفرٌ قليلٌ من أولاد بني إسرائيل قال مجاهد: هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم[1] ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي على تخوُّف وحذَرٍ من فرعون وملئه أن يعَذّبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون: يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ ﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ أي إن كنتم مُستسْلِمين لحكم الله مُنقادين لشرعه ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي أجابوا قائلين: على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا تسلِّطهْم علينا حتى يعذبونا ويُفْتَتَنُوا بنا فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لَمَا أُصِيبوا ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي خلِّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ أي اتخذا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ اي

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آلِ فرعون. وما ذكرناه هو اختيار «الطبري» والجمهور، وهو الأرجح.

اجعلوها مُصَلًّى[١] تُصَلُّون فيها عند الخوف قال ابن عباس: كانوا خائفين فأُمِروا أن يُصَلُّوا في بيوتهم[٢] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أَدُّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بَشِّرْ يا موسى أتباعَك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافَهم، زينةً من متاع الدنيا وأثاثها، وأنواعًا كثيرة من المال ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ اللام لامُ العاقبة[٣] أي آتيتَهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبةُ أمرِهم إضلالَ الناس عن دينك، ومَنْعَهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ دعاءٌ عليهم أي أهلكْ أموالهم يا ألله وبدِّدْها ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قَسِّ قلوبهم واطبعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان قال ابن عباس: أي امنعهم الإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ النفي أي اللهمَّ فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس: كان موسى يدعو وهارون يؤمّن فنسبت الدعوة إليهما[٤] ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قال تعالى: قد استجبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي اثبُتَا على ما أنتم عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تسْلُكا سبيل الجهَلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى، قال «الطبري»: رُوي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ثم أغرقَ الله فرعون[٥].

البَلاَغَة: ١ - ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تقديمُ ما حَقُّه التأخير لإفاده الحصر أي على الله لا على غيره.

٢ - ﴿وَيُحِقُّ .. ٱلْحَقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣ - ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ عبَّر عن الالتباس والستر بالغُمة بطريق الاستعارة أي لا

---

(١) وقيل: المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة.

(٢) «الطبري» ١١/ ١٥٤.

(٣) هذه اللام كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وفي الخبر (لُدُّوا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ) أي لتكون العاقبة الموت والخراب. (ش): هذا الخبر أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» وضعفه الألباني. (لَدَّ المريضَ): أعطاه الشرابَ الذى يُسقَاه فى أحد شِقَّيْ فمِه. (لُدُّوا لِلْمَوْتِ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ): فالمريض مهما أخذ من أسباب العلاج سيموت يومًا، وكذلك ما يبنيه الناس مصيره يومًا إلى الخراب.

(٤) «البحر» ٥/ ١٨٧.

(٥) «الطبري» ١١/ ١٦١. (ش): رواه ابن جرير «الطبري» عن ابن جُرَيْج بلفظ: «يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة». وهل يثبت هذا الكلام وبَيْنَ ابنِ جُرَيج وموسى عليه السلام مئات أو آلاف السنين؟

يكن أمركم مغطّى تغطيةَ حيرةٍ ومبهمًا فيكون كالغُمّة العمياء.

٤ - ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ الشدُّ استعارةٌ عن تغليظ العقاب، ومضاعفة العذاب.

تنبيه: قال ابن كثير: دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧] ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام.

قال الله تعالى:

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٍ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ ٩٨ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡا۟ مِن قَبۡلِهِمۡ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ ١٠٨ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩

المناسبة: لّما ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في «البحر» نتيجة البغي والعدوان، وأن إيمانه لم ينفعْه لأنه إيمان المضطر، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد، وأن

الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان.

اللغة: ﴿بَوَّأْنَا﴾ أنزَلْنا وأسكَنّا ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكّين، امترى: شَكَّ وارتاب ﴿فَلَوْلَا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلا ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب أو السخط ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة كلِّها ﴿يَمْسَسْكَ﴾ يصبك ﴿كَاشِفَ﴾ دافِعٌ ومُزيل يقال: كشف السوء أي أزاله ﴿بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إِلَيَّ أمرُكم.

التفسير: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي قطَعْنا وعدَّيْنا ببني إسرائيل «البحر» «بحر السويس» حتى جاوزوه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي لحقهم فرعونُ مع جنوده ظلمًا وعدوانًا وطلبًا للاستعلاء بغير حق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي قال عندئذٍ: أقرَرْتُ وصدقْتُ بأنه لا إله إلا اللهُ ربُّ العالمين، الذي آمنت وأقرَّت به بنو إسرائيل ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تأكيدٌ لدعوى الإيمان أي وأنا ممَّن أسلم نفسه لله، وأخلص في إيمانه قال ابن عباس: جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة[1] ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي الآن تؤمن حين يئستَ من الحياة، وقد عصيْتَ الله قبل نزول نقمته بك، وكنتَ من الغالين في الضلال والإضلال والصدِّ عن دين الله؟ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي فاليوم نخرجك من «البحر» بجسدك الذي لا روح فيه ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي لتكون عبرةً لمن بعدك من الناس، ومن الجبابرة والفراعنة، حتى لا يطغَوا مثل طغيانك قال ابن عباس: إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله «البحر» أن يلقيه بجسده سويًّا بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه[2] ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي مُعرِضون عن تأمُّل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يَعتبِرون بها ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي أنزلنا وأسكَنَّا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحًا مرضيًّا ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله، وهذا ذَمٌّ لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين، والدينُ يجمع ولا يفرّق، ويوَحِّد ولا يشتت وقال «الطبري»: كانوا قبل أن يُبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، فلما

(١) الطبري ١١/ ١٦٣ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخذول، قال «أبو السعود».
(ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ « لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِى وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِى فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني). حَالِ الْبَحْرِ: طِينه الأسود.
(٢) «المختصر» ٢/ ٢٠٦.

جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم، وآمن البعض، فذلك اختلافهم[١] ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير: أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري: هذا على الفرض والتمثيل[٢] كأنه قيل: فإن وقع شك مثلاً، وخيَّل لك الشيطان خيالاً تقديراً فسَلْ علماء أهل الكتاب، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥] بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ بمعنى الفرض والتمثيل وقال بعضهم: الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل، فإن ذلك محقَّق عندهم كما قصصنا عليك، والغرضُ دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي جاءك يا محمد البيانُ الحق، والخبر الصادق، الذي لا يعتريه شك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تكذّبْ بشيءٍ من آيات الله ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته، قال «البيضاوي»: وهذا من باب التهْييج والتثبيت وقطْع أطماع المشركين عنه[٣] وقال «القرطبي»: الخطابُ في هاتين الآيتين للنبي ﷺ والمراد غيره[٤] ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ أي لا يصدِّقون ولا يؤمنون أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي فحينئذٍ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها، تابَتْ عن الكفر وأخلصَت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي غير قوم يونس ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المُخزي المُهين في الحياة الدنيا ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي أخَّرْناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة: روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم، فلما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المُسُوح[٥]، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندم على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب[٦] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لو أراد الله لآمن الناس جميعاً، ولكنْ لم

(١) «الطبري» ١١/ ١٦٧.
(٢) «الكشاف» ٢/ ٣٧٠.
(٣) «البيضاوي» ٢٤٥.
(٤) «القرطبي» ٨/ ٣٨٣.
(٥) (ش): المِسْح: كساء غليظ.
(٦) «الطبري» ١١/ ١٧١.

يشَأْ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ ؟ أي أفأنت يا محمد تُكره الناس على الإيمان، وتضطرهم إلى الدخول في دينك؟ ليس ذلك إليك، والآية تسليةٌ له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكّر الأول، ولا يضلُّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول[1] ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ما كان لأحدٍ أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار: انظروا نظرَ تفكُّر واعتبار، ما الذي في السماوات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه؟ ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال؟ ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجّي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس: خوَّفهم عذابه ونقمته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمرٌ أنجَى الله رسله والذين آمنوا معه[2] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم، وبيده محياكم ومماتكم، قال «الطبري»: وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلام لطيف، وكأنه يقول: لا ينبغي لكم أن تَشُكُّوا في ديني، وإنما ينبغي أن تَشُكُّوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، فأما إلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر[3] ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحّداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي وأمرتُ بالاستقامة في الدين، على الحنيفية السمحة ملةِ إبراهيم ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ولا تكوننَّ ممن يشرك في عبادة ربه

(١) «القرطبي» ٨/ ٣٨٥.
(٢) «الطبري» ١١/ ١٧٦.
(٣) «الطبري» ١١/ ١٧٦.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبدْ غير الله ممّا لا ينفع ولا يضر كالآلهة[1] والأصنام ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرَّضْتَها لعذاب الله، والخطابُ هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍّ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد، الرحيم بأهل الرشاد ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى بالإيمان فمنفعة اهتدائه لها خاصة ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي ومن ضلَّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي ولست بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذير ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي اتّبعْ يا محمد في جميع شئونك ما يوحيه إليك ربُّك ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشركين.

البَلاَغة: ١ - ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار.

٢ - ﴿بَوَّأْنَا ... مُبَوَّأَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

٣ - ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة[2].

٤ - ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتهويل أمرها باستحضار صورتها.

٥ - ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بينهما طباق.

٦ - ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ... وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من المحسنات البديعية.

٧ - ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ .. وَمَن ضَلَّ﴾ بينهما طباقٌ.

٨ - ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ .. ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

فَائِدَة: قال الإمام الفخر: آمن فرعون ثلاث مرات: أولها قوله ﴿ءَامَنَتْ﴾ وثانيها قوله

---

(١) (ش): أي معبوداتهم الباطلة.

(٢) (ش): قال الإمام ابن جرير «الطبري» في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٥/ ٢٠٤): في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: « يقول تعالى ذكره: إن الذين وجبت عليهم يا محمد «كلمة ربك»، هي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، [سورة هود: ١٨] ، فثبتت عليهم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وثالثها قوله ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه؟ الجواب: أنه إنما آمن عند نزول العذاب، والإيمانُ في هذا الوقت غير مقبول، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الإيمان قال تعالى ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] .

تنبيه: قال المفسرون: إنما نجّى الله بدن فرعون بعد الغرق، لأن قوماً اعتقدوا فيه الإلهية، وزعموا أن مثله لا يموت، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة، ليتحققوا موته، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمره إلى الذل والهوان، فيكون عبرة للخلق، وزجراً لأهل الطغيان.

«تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه، والحمد لله رب العالمين»

تم بحمد الله المجلد الأول

فهرس أحاديث المجلد الأول

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
«كان ﷺ إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير...»	أصحاب السنن	٨٩
«والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثلها...»	أحمد	٩٠
«لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين...»	البخاري	٩٠
«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة...»	مسلم والترمذي	٩٩
«اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة...»	مسلم	٩٩
«البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديان ولا يموت...»	أصحاب السنن	١٢٦
«كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة...»	أصحاب السنن	١٢٨
«لما فتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سم...»	البخاري	١٤٧
«لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار...»	البخاري والنسائي	١٥٥
«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله...»	البخاري	١٧٥
«لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا...»	البخاري	١٧٦
«إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟...»	أحمد والترمذي	١٨٢
«يا سعدُ أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة....»	الحافظ ابن مردويه	١٩١
«إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد...»	الترمذي	٢٠٠
«إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته...»	أصحاب السنن	٢٠٠
«شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة...»	البخاري	٢١٦
«اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبد...»	النسائي	٢٢١
«شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا»	الشيخان	٢٢٣
«الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتُر أهله وماله» أي فقدهما	الشيخان	٢٣٤
«ابن آدم مرضتُ فلم تعدني، قال: وكيف أعودك وأنت رب العالمين...» حديث قدسي	الشيخان	٢٣٨
«سأل عمر بن الخطاب يومًا أصحاب النبي ﷺ فيم ترون هذه الآية نزلت....»	البخاري	٢٥٢
«كان رجل يُداين الناس، فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسرًا فتجاوز عنه....»	البخاري	٢٥٨
«أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة...»	مسلم	٢٦٣
«يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به..»	مسلم	٢٦٤

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
«إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم....»	مسلم	٢٦٨
«قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف على...»	البخاري	٢٦٩
«قال عمر بن الخطاب: اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك»	البخاري	٢٧٣
«عبدي عهد إليَّ عهدًا وأنا أحق من وفى، أدخلوا عبدي الجنة» حديث قدسي	الطبراني	٢٧٧
«إن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبه...» حديث قدسي	الشيخان والترمذي	٢٨٠
«من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى..»	مسلم والترمذي	٢٩٥
«لحق رجل من الأنصار بالمشركين ثم ندم، فأرسل إلى قومه هل لي من توبة؟...»	النسائي	٢٩٩
«يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض...»	الشيخان	٣٠١
«لما كسرت رباعية النبي ﷺ وشُجَّ وجهه قال: كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم...»	مسلم	٣١٣
«كتب هرقل إلى النبي ﷺ: إنك دعوتني إلى جنة عرضها السماوات والأرض فأين النار...»	أحمد	٣٢٠
«لما هزم المسلمون بأُحدُ وأشاع المشركون بأن محمدًا ﷺ قد قتل...»	البخاري	٣٢٥
«لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر...»	الشيخان	٣٣١
«ألا أبشرك بما لقى الله عز وجل به أباك قلت: بلى يا رسول الله....»	ابن ماجه والترمذي	٣٣١
«سئلت عائشة عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت....»	ابن مردويه	٣٣٤
«يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها...»	الشيخان	٣٤٧
«جاءت امرأة سعد بن الربيع رسول الله ﷺ بابنتيها فقالت: يا رسول الله...»	الشيخان	٣٥٢
«لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلقًا رضي منها آخر...»	مسلم	٣٥٧
«اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله»	مسلم	٣٥٧
«صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا وسقانا من الخمر فأخذت منها وحضرت الصلاة...»	الترمذي	٣٦٨
«اقرأ علي القرآن، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟...»	البخاري	٣٦٩
«يعظم أهل النار في النار حتى إن ضرس أحدهم مثل أُحُد...»	أحمد	٣٧٤

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
«قال رجل للنبي ﷺ: إنك لأحب إلى من نفسي وأهلي وإني لأذكرك فما أصبر...»	ابن مردويه	٣٨٠
«تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيله...»	مسلم	٣٨٣
«إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد»	الشيخان	٣٨٨
«الحق المسلمون رجلًا في غنيمة له فقال: السلام عليكم فقتلوه..»	مسلم	٣٨٨
«إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم...»	البخاري	٣٩١
«إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله...»	النسائي	٣٩١
«من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة...»	ابن ماجه	٣٩١
«لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن...»	البيهقي	٣٩٢
«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»	البخاري	٤٠٦
«والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا..»	الشيخان	٤١٥
«أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله..»	أحمد	٤٢٤
«إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل..»	البخاري	٤٢٨
«ويلٌ للأعقاب من النار»، وفي رواية: «ويل للعراقيب من النار»	الشيخان	٤٢٩
«آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك يوم عيدًا...»	الشيخان	٤٣١
«يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا..»	البخاري	٤٤٢
«مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمم مجلود، فدعاهم فقال: هكذا تجدون حد الزاني...»	مسلم	٤٤٥
«ائتمر بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًا مُطاعا، وهوى متبعًا...»	الحاكم	٤٧٥
«أُنزلت المائدة من السماء خبزًا ولحمًا، وأُمروا ألا يدَّخروا لغدٍ...»	الترمذي	٤٨١
«يا جبريل اذهب إلى محمد فاسأله ما يبكيك؟ فقال...» حديث قدسي	مسلم	٤٨٢
«إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج...»	أحمد	٤٩٩
«الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام...»	الترمذي	٥٠١
«أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلًا...»	الشيخان	٥١٥
«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا...»	البخاري	٥٤٣

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
«يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء..» حديث قدسي	مسلم	٥٤٣
«يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»	البخاري	٥٥٠
«كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول: من يعيرني تطوافًا...»	مسلم	٥٥٦
«إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا يجيئه ملك الموت...»	أحمد	٥٥٨
«لن يُدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله...»	مسلم	٥٥٩
«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون..»	مسلم	٥٩٦
«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم..»	الشيخان	٦٠٠
«إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»	الترمذي	٦٠٢
«إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك، وتصل من قطعك»	أصحاب السنن	٦٠٦
«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»	أبو داود والترمذي	٦٢٠
«ما رؤي الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة...»	مالك	٦٣٠
«أبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة»	مسلم	٦٣٤
«لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر..»	أصحاب السنن	٦٣٧
«إن آخر سورة نزلت سورة براءة»	البخاري	٦٤٠
«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان...»	الترمذي	٦٥٠
«كنا إذا حمي البأس نتقى برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه»	الترمذي	٦٥٣
«أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن...»	أحمد والترمذي	٦٥٥
«ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته...»	أبو داود	٦٥٧
«ويلكم إن لم أعدل فمن يعدل؟...»	أحمد	٦٦٨
«لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل...»	مسلم	٦٩٥
«إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النفس...»	مسلم	٧٠٦
«إن لله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة...»	أبو داود	٧٢٢

***

فهرس موضوعات المجلد الأول

مقدمة المحقق ٥
تقاريظ لطائفة من كبار العلماء ٧٨
كلمة سماحة شيخ الأزهر ٧٨
كلمة سماحة رئيس مجلس القضاء العالي ٧٩
كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ٨٠
كلمة معالي مدير جامعة الملك عبد العزيز ٨١
كلمة فضيلة رئيس قسم الدعوة ٨٤
مقدمة المؤلف الشيخ محمد على الصابوني ٨٥
طريقة المؤلف في صفوة التفاسير ٨٦

١- سورة الفاتحة

الحكمة من افتتاح السور ببسم الله الرحمن الرحيم ٨٩
المقاصد الأساسية لسورة الفاتحة ٨٩
فضل سورة الفاتحة ٩٠
وجوه الفصاحة والبلاغة في الفاتحة ٩٣
الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب ٩٥

٢- سورة البقرة

المقاصد الأساسية لسورة البقرة ٩٧
لماذا سميت سورة البقرة ٩٩
فضل سورة البقرة ٩٩
السر في افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة ١٠٠
انقسام الناس إلى مؤمنين، وكافرين، ومنافقين ١٠١
أوصاف المؤمنين الفاضلة ١٠١
أوصاف الكافرين ومصيرهم في الآخرة ١٠٢
صفات المنافقين الشنيعة ١٠٣
ضرب الأمثال للمنافقين ١٠٣
بيان من القرآن لظلمة الضلال والنفاق ١٠٦
وصف المنافقين بعشرة أوصاف شنيعة ١٠٨
كلام ابن القيم حول أمثال القرآن ١١٠
السر في التعبير بقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل (بنارهم) ١١٠
السر في جمع الظلمات وتوحيد النور ١١٠

الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ١١٠
كلام الإمام البيضاوي حول كروية الأرض..... ١١٣
وجوه إعجاز القرآن الكريم..... ١١٣
القرآن معجز في نظمه، وتشريعه، وبيانه ١١٣
عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن ١١٣
كلام الحافظ ابن كثير في إعجاز القرآن ١١٤
الرد على شبهات المشركين ١١٤
لماذا ضرب القرآن الأمثال بالذباب والعنكبوت؟ ١١٥
الحكمة من إكثار الأمثال في القرآن..... ١١٦
خلق آدم وخلافته في الأرض..... ١١٨
الحكمة في أمر الملائكة بالسجود لآدم..... ١٢٢
سجود الملائكة كان سجود تحية وتكريم لا سجود خضوع وعبادة ١٢٣
لطيفة: هل لإبليس زوجة؟ ورد الشعبي على السؤال ١٢٤
سجود الملائكة لآدم سجود تحية وتكريم ١٢٤
التحقيق في أن إبليس لم يكن من الملائكة ١٢٤
من هو إسرائيل؟ ١٢٥
الفرق بين عبيد النعم وعبيد المنعم ١٢٦
قول علي: «قصم ظهري رجلان..» ١٢٧
سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ١٢٩
ما هو الحجر الذي نبع منه الماء؟..... ١٣٣
قصة البقرة ذكر إحياء الموتى في خمسة مواضع ١٣٩
التحريف لكلام الله نوعان ١٤٠
قصة عزم اليهود على قتل الرسول ﷺ بالسم ١٤٠
سبب بغض اليهود لجبريل عليه السلام ١٤٣
السر في التفريق بين ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ ١٥٣
الحكمة من تعليم الملكين السحر للبشر..... ١٥٥
ورود لفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في ثمانية وأربعون موضعًا من القرآن ١٥٨
معنى إسلام الوجه لله تعالى ١٦١
تعريف لطيف ودقيق لمعنى البدعة ١٦٤
الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم..... ١٦٨
السر في تفضيل البيت العتيق ١٧١

المقصود من معنى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ١٧٣
الحكمة من تحويل القبلة ١٧٦
الحكمة من تكرار الأمر باستقبال القبلة ١٧٨
ما هي النعم الثلاث في المصيبة؟ ١٨٠
معنى إتباع خطوت الشيطان ١٨٥
فائدة هامة في سمو التعبير من ناحية حسن البيان في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . ١٩٢
السر في اقتران القتال بكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٢٠٠
الحكمة من المغايرة بين «قل» و «فقل» في أجوبة الأسئلة ٢٠٣
المعنى الصحيح لإلقاء بالنفس إلى التهلكة ٢٠٣
الفرق بين زاد الدنيا وزاد الآخرة ٢٠٤
لماذا كانت الخمر أم الخبائث؟ ٢١٧
ما هي المنافع في الخمر والميسر؟ ٢١٨
أول خلع كان في الإسلام ٢٢٢
الحكمة من إيجاب المتعة ٢٢٣
قصة تمتيع الحسن بن علي لزوجته ٢٢٨
التحقيق أن الصلاة الوسطى هي العصر ٢٣٢
قصة أبي الدحداح في تصدقه ببستانه ٢٣٤
تفسير ابن عباس للكرسي بأنه العلم ٢٤١
ملك الدنيا مؤمنان وكافران ٢٤٥
سؤال الخليل عن كيفية الإحياء ليست للشك ٢٤٥
سؤال عمر للصحابة عن معنى آية ٢٥٢
قول بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره ٢٥٣
العلم نوعان: كسبيّ ووهبيّ ٢٦١

٣- سورة آل عمران

أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم ٢٦٥
سؤال رجل لابن عباس عن المتشابه في القرآن ٢٦٨
فائدة تخصيص الأسحار بالاستغفار ٢٧٣
لطيفة في المحاورة بين العقل والعلم ٢٧٧
كرامات الأولياء والأدلة عليها ٢٨١
سؤال الجنيد عن مكر الله وجوابه اللطيف ٢٨٤

لا تحل أموال أهل الذمة إذا أدوا الجزية ٢٩٨
قصة شاس بين قيس اليهودي وما نزل في الأنصار بسبب عدو الله..... ٣٠٢
النهي عن الاختلاف في الأصول لا في الفروع ٣٠٦
المقصود بالأضعاف المضاعفة في الربا ٣١٣
أعمال الآخرة ينبغي لها المسارعة ٣١٦
قصة أنس بن النضر رضي الله عنه..... ٣٢١
جهاد النساء في غزوة أحد..... ٣٢٦
محمد ﷺ بحر المكارم والفضائل..... ٣٣٠
استحباب قول المؤمن: «حسبنا الله ونعم الوكيل» عند الغم والأمور العظيمة ... ٣٣٥
قصة أبي بكر مع فخاض..... ٣٤٠
أعجب ما رأته عائشة من رسول الله ﷺ..... ٣٤٣

٤- سورة النساء

كلمة لطيفة حول تعدد الزوجات في الإسلام ٣٥٠
استنباط بديع من آية ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ ٣٥١
في الكناية عن الجماع بالإفضاء أدب رفيع..... ٣٥٤
نهي عمر عن المغالاة في المهو ورد امرأة عليه..... ٣٥٨
خطأ فاحش ارتكبه الشيعة في المتعة..... ٣٦٣
لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار ٣٦٧
قصة سعد بن الربيع مع امرأته حبيبة..... ٣٦٨
السر في ذكر الإصلاح دون التفريق..... ٣٦٨
الإيجاز والإعجاز في التعبير القرآني ٣٦٩
كلمة لطيفة حول تأديب النساء..... ٣٧٠
قصة إسلام عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة ٣٧١
قصة المنافق واليهودي وما نزل فيه ٣٧١
قول الصحابة: كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة! ٣٨١
التوفيق بين آيتي الحسنة والسيئة ٣٨٧
اختلاف الصحابة في شأن المنافقين ٣٨٨
الفارق الهائل بين حضارة الإسلام والحضارة الغربية ٣٩١
قصة الصحابي «ضمرة بن القيس» رضي الله عنه ٣٩٢
قصة طعمة بن أبيرق وجماعته المنافقين ٣٩٣
تفاخر المسلمين وتفاخر أهل الكتاب..... ٤٠٠

العدل بين النساء الذي أمر به الإسلام ٤٠٦
معنى آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ٤٠٧
أسماء جهنم السبعة: «جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية» ... ٤١٢
تنبيه هام للتفريق بين النفاق والكفر ٤١٢
الرد على بهتان النصارى في زعمهم صلب المسيح ٤١٧
معنى أن المسيح عيسى ابن مريم من روح الله ٤١٨

٥- سورة المائدة

قصة الفيلسوف الكندي الذي عزم على معارضة القرآن ٤٣٠
الفارق بين المبدأ الجاهلي والمبدأ الإنساني ٤٣١
قصة اليهودي مع عمر بن الخطاب وفضل آية من القرآن ٤٣١
كفر من زعم حلول الله في الصور من جهلة الصوفية ٤٣٧
السر في تسمية أرض فلسطين الأرض المقدسة ٤٣٨
استنباط دقيق من القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ٤٣٨
قصة قابيل وهابيل وسبب قتل قابيل لأخيه ٤٣٩
عقوبة قطاع الطريق والرهط من عرينة الذين قتلوا راعي النبي ﷺ ٤٤٠
معنى النفي من الأرض وهل يدخل فيه السرقة ٤٤٢
قصة الأصمعي مع الأعرابي وآية السرقة ٤٤٢
اعتراض بعض الملاحدة على قطع يد السارق ٤٤٢
كلمة وجيزة لبيان حكمة التشريع في قطع اليد ٤٤٢
قصة اليهودي الذي زنى وحكم الرسول ﷺ فيه ٤٤٤
اليهود إخوة الخنازير والقرود وما نزل فيهم ٤٤٩
كراهية عمر رضي الله عنه لاستعمال اليهود والنصارى ٤٥١
تنبيه هام إلى التفصيل في علة تحريم الخمر والميسر ٤٥٦
المواطن التي يكون فيها السؤال مذمومًا عشرة ٤٧٧

٦- سورة الأنعام

فائدة: خمس سور ابتدأت بـ «الحمد لله» ٤٩٠
قصة الأخنس بن شريق مع أبي جهل بن هشام وسؤاله هل محمد صادق أو كاذب؟
وما أجابه به ٤٩١
وجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة ٥٠٣
ما هي مفاتح الغيب؟ ٥٠٤

كلام إبراهيم في الشمس والقمر كان للمناظرة ٥٠٩
الصحيح أن «آزر» والد إبراهيم ٥١٠
معنى إخراج الحي من الميت والميت من الحي ٥١٦
آية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ نفيٌ لإحاطة لا نفيٌ للرؤية في الآخرة ٥٢٢
القول في الدين بمجرد التقليد حرام ٥٢٨
بحث الرسل من الإنس لا من الجن ٥٢٩
قصة الصحابي الذي وأد ابنته في الجاهلية ٥٣٥
فائدة: التحريم يُعلم بالوحي لا بالهوى ٥٣٩
ما هي الوصايا العشر؟ ٥٣٩
الحكمة من التفضيل بين الخلق ٥٤٠
سبيل الحق واحد، وطرق الضلال كثيرة ٥٤٣
كثيرًا ما يقرن القرآن بين آيات الرغبة والرهبة ٥٤٣

٧- سورة الأعراف

الحكمة من الحروف المقطعة بيان إعجاز القرآن ٥٤٦
سؤال الرسل توبيخٌ للمجرمين والعصاة ٥٤٧
كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟ ٥٥٥
الأدلة على أن إبليس من الجن وليس من الملائكة ٥٥٦
لماذا سميت العورة سوأة؟ ٥٥٧
الغرض الخبيث من الدعوة إلى تعري المرأة ٥٥٧
كيف كان العرب يطوفون حول الكعبة؟ ٥٥٨
من هم أصحاب الأعراف؟ ٥٥٩
ما معنى نسيان الله للكافر؟ ٥٦٠
علم الأبدان وعلم الأديان وقصة الطبيب النصراني ٥٦٢
معنى الاستواء على العرش وتوضيح مذهب السلف فيه ٥٦٣
آداب الدعاء والساعات التي يستجاب فيها ٥٦٤
سبب سكني بني إسرائيل في مصر ٥٧٩
السبب في تأجيل مناجاة موسى لربه ٥٨١
تنبيه هام إلى رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ٥٨٣
سماع كلام الحبيب يزيد في الشوق والحنين ٥٨٤
السعادة والشقاوة بيد الله تعالى ٥٨٤
قصة أصحاب القرية الذين مسخوا قردة وخنازير ٥٩٦

معنى استخراج ذرية آدم من صلبه وأخذ العهد عليهم ٥٩٨
قصة «بلعم بن باعوراء» الذي أعطاه الله العلم ثم ارتد عن الدين وكفر بالله..... ٥٩٨
هل أسماء الله الحسنى محصورة في التسعة والتسعين؟ ٦٠٠
الحكمة في إخفاء الساعة عن العباد ٦٠٣
التحقيق العلمي في بية ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وقصة آدم وحواء ... ٦٠٤
قصة إسلام معاذ بن جبل ومعاذ بن الجموح وتكسيرهما لأصنام المشركين ٦٠٤
الأدلة على بطلان عبادة الأصنام والأوثان ٦٠٤
كيف يدفع الإنسان عنه كيد الشيطان؟ ٦٠٧
فائدة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ٦٠٧

٨- سورة الأنفال

النداءات الإلهية للمؤمنين في سورة الأنفال ٦٠٨
صفات المؤمنين الكاملين وكلام ابن الخطيب..... ٦١١
إمداد المؤمنين بالملائكة يوم بدر..... ٦١٦
التوفيق بين إمدادهم بألف وبثلاثة آلالف ٦١٨
قصة «أبو لبابة» واستشارة اليهود له ٦١٨
معنى آية ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ ٦١٩
قصة اجتماع إبليس اللعين مع المشركين بدار الندوة..... ٦٢١
للمؤمنين أمانان: نبي الله، والاستغفار..... ٦٢٢
تنبيه إلى وجوب إجابة دعاء الرسول ﷺ..... ٦٢٦
لطيفة في قول معاوية لرجل: ما أجهل قومك حين ملكتهم امرأة! ٦٢٦
قول أبي جهل في بدر: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، ونشرب الخمور... إلخ ٦٢٩
معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ٦٣١
تنبيه إلى أن القوة نوعان: مادية وروحية ٦٣٣
استشارة النبي ﷺ لأصحابه في أسرى بدر ٦٣٤
أخذه لرأي أبي بكر وما نزل من العتاب ٦٣٧

٩- سورة التوبة

سورة التوبة كشفت أسرار المنافقين ٦٤١
السر في عدم وجود البسملة فيها ٦٤١
أسماء سورة التوبة أربعة عشر اسمًا ٦٤١
توبيخ الصحابة للعباس وتعييرهم له بالشرك ٦٤٣
قول العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟ ٦٤٤

عمارة المساجد نوعان: حسية، ومعنوية ٦٥٠
لطيفة في قصة أعرابي طلب تعليمه القرآن ٦٥١
معنى آية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ٦٥٣
من لطائف الاستعارات قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ ٦٥٥
قول الرسول ﷺ لأبي بكر: ما ظنك باثنين الله ثالثهما!! ٦٦١
اتفاق المفسرين على أن أبا بكر كان صاحب الرسول ﷺ في الغار ٦٦١
علو قد ر الرسول ﷺ وسمو منزلته عند ربه ٦٦٢
تقديم العفو على العتاب تكريم للرسول عليه السلام ٦٦٢
المعنى الصحيح لكنز الأموال ٦٦٣
تنبيهٌ على عظيم فضل الصديق رضي الله عنه ٦٦٣
قصة «صفوان بن عمرو» وخروجه للجهاد وهو شيخ هرم ٦٦٣
قصة «الجد بن قيس» المنافق وما نزل فيه ٦٦٥
لطيفة في معنى آية: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ٦٦٩
تنبيه عن سبب دخول المنافقين في الإسلام ٦٦٩
قول علي: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف ٦٧٧
الأمور التي يتميز بها المؤمن عن المنافق ٦٧٧
قصة ثعلبة المنافق وهو غير ثعلبة بن أبي حاطب الصحابي المشهور ٦٧٨
النهي عن الصلاة على المنافقين وما نزل في ابن سلول ٦٧٨
السر في ذكر السبعين في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ٦٨٤
الصلاة على الميت استغفار له واستشفاع، والكافر ليس أهلًا لذلك ٦٨٤
لماذا كان عمر يقول لحذيفة: هل عدَّني رسول الله ﷺ من المنافقين؟ ٦٨٤
قصة أبو عامر الراهب الذي تنصَّر في الجاهلية ٦٨٦
مسجد الضرار وأمر الرسول ﷺ بإحراقه ٦٨٦
تنبيه هام إلى أن «عيسى» من الله واجبة ٦٩٢
لطيفة في قصة «زيد بن صوحان» مع الأعرابي ٦٩٢
قصة أبي طالب لما حضرته الوفاة وما نزل فيه ٦٩٤
التحقيق في أن أبا طالب مات على الكفر ٦٩٤
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ ٦٩٥
الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ٦٩٥
لا ينبغي خروج جميع المسلمين إلى الغزو ٦٩٦
معنى آية ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ ٦٩٦

قصة «أبي خيثمة الأنصاري» مع زوجته الحسناء ٦٩٨
السر في ختم السورة بقول: (حسبي الله ونعم الوكيل) ٧٠٠
رحمة الرسول ﷺ وشفقته على أمته ٧٠١

١٠- سور يونس

الحكمة من الحروف المقطعة التنبيه على إعجاز القرآن ٧٠٢
معنى الاستواء على العرش ومذهب السلف الصالح ٧٠٤
قول الحافظ ابن كثير في معنى الاستواء ٧٠٤
السر في تخصيص الشمس بالضياء والقمر بالنور ٧٠٤
هذا القرآن جاء به نبي أمي يعلمون أحواله ٧٠٦
القرآن مشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق.. إلخ ٧٠٦
قصة إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه ٧٠٨
اكتشاف البشر لنواميس الكون ٧١٠
معنى القرآن شفاءٌ لما في الصدور ٧١٥
من هم أولياء الله؟ ٧١٨
معنى البشارة للمؤمن في الحياة الدنيا ٧٢٢
أمر الله رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع ٧٢٤
تنبيه إلى المراد من قوله: «أرأيت» ٧٢٨
الغرض من ذكر قصص الأنبياء ٧٢٩
ذكر قصة قوم يونس عليه السلام ٧٢٩
سنة الله في إنجاء الرسل والمؤمنين ٧٣٠
الغرض من نجاة بدون فرعون بعد غرقه ٧٣٣
فهرس أحاديث المجلد الأول ٧٣٥
فهرس موضوعات المجلد الأول ٧٣٩

* * *